دمشق الشام

لمحة تاريخية

منذ العصور القديمة حتى العصر الحاضر

بقلم

جان سوفاجيه

نقلها الى العربية

فؤاد افرام البستاني

ظهرت في مجلّة « المشرق »

المطبعة الكاثوليكية . بيروت

١٩٣٦

دمشق الشام

لمحة تاريخية

منذ العصور القديمة حتى العصر الحاضر

بقلم

جان سوفاجيه

ظهرت في مجلّة « المشرق »

المطبعة الكاثوليكية ، بيروت

١٩٣٦

كان الاستاذ سوفاجيه قد القى في ٦-٩ ايار ١٩٣٥ ، برعاية معهد الدروس الاسلامية ومعهد الفنّ والآثار القديمة في باريس ، ثلاث محاضرات في تاريخ دمشق منذ العصور القديمة حتى العصر الحاضر ؛ فرغبنا اليه في تعريبها ونشرها على صفحات « المشرق » ، مناسبةً لافتتاح معرض دمشق ، فأذن راضياً ، وباشرنا العمل شاكرين . وها هي موادّ المحاضرات الثلاث ننشرها مجرّدة من ذكر المصادر ، خالية اجمالاً من اساليب المناقشة . وما ذاك الّا لان المؤلّف يُعدّ ، في الموضوع نفسه ، دروساً اوسع واعمق ستظهر حافلة بكل ما تتطلبه طرق النقد العلمي.

ف. ا. ب.

تمهيد

من يقابل بين سورية وسائر البلدان التي دخلهـا العرب ، على اثر الفتح الاسلامي، لا يلبث ان يرى سورية تمتاز بانه لم يُنشأ فيها ، منذ ظهور الاسلام، مدينة واحدة نالت اهمية جديرة بالذكر . وان المدينة الوحيدة المُنشأة بكلّها في الاراضي السورية ، وهي الرملة التي مصّرها سليمان بن عبد الملك ، لم ترتقِ يوماً الى مصاف الحواضر المهمّة .

وذلك ان سورية عرفت ، في العصور التي تقدّمت الفتح العربي ، تمصيرًا مزدهرًا متتابعاً تشهد له مدنها المشهورة من امثال صور وصيدا واورشليم ودمشق وانطاكية وتدمر وغيرها . حتى انها فاقت بهذا الازدهار الحضري سائر البلاد الاسلامية ، لا نكاد نستثني منها الّا تركية . اما السبب في هذه الظاهرة فتكوين البقعة الجغرافي من جهة ، وقـد قسمتها الطبيعة « بلداناً » متنوّعة ، يفرض كلّ بلد منها وسطاً تجاريًا وسياسيًا ؛ ومن جهة اخرى تفـاعل العوامل التاريخية في تلك البقعة الواقعة بين مصر والجزيرة ، بين منطقتين مشهورتين بخصب ارضهما حتى انهما اصبحتا من مراكز المدنية العاملة ، منذ فجر التاريخ . فكان لسورية ان تنيـل جارتيها الغنيّتين الموادّ الطبيعية الاولى التي تنقصهما كخشب البناء والمعادن وما شاكل . فنشأت فيها التجارة والصناعة ، اولى مظاهر التحضّر ، ولم تلبث مدنها ان ازدهرت منذ العصور الاولى .

ومما يجدر بالملاحظة ان قدم هذه الحركة الحضرية في سورية جعل للجماعات الاسلامية فيها صفةً خاصّة . فبينا نرى ان القيروان والبصرة لم تخرجا بعد من حيّز العدم ، زمن الفتح العربي ، نجد دمشق واورشليم على ماضٍ عريق في القدم . وهكذا بدت المدن السورية مختلفةً اختـلافاً جوهريًا عن مدن المغرب حتى امكن احد الجغرافيين ان يقول عن مكنس انها اقرب الى شيكاغو منها الى

دمشق . ذلك ان المظهر الاسلامي في المدن السورية كان نتيجة تطوّر متتابع مدة القرون العديدة . ولا بدّ من الوقوف على تفاصيل هذا التطوّر لنفهم ميزات تلك المدن ، بل لنفهم ، الى حدٍّ ما ، تطوّر مدن القرون الوسطى نفسها .

وان للمدن السورية ، فوق ما تقدّم ، لفائدة اخرى . وهي انها كانت ، على ما نرى ، ذات أثر يُذكر في نشأة المبادئ الحضرية التي تطوّرت بموجبها مدن اسبانية والمغرب . ولا يخفى انه في سورية ، لا في مصر ولا في العراق — ذينك البلدين الزراعيين اصلًا — امكن العرب ان يتصلوا اتصالًا وثيقًا بالمجتمعات الحضرية الجديرة باسم « المدن » الا وهي المدن الرومانية . فتأثّروا بترتيبها وبنظامها ، واستوحوا منها في منشآتهم . يدلّ على ذلك تصميم مدينة الرملة ، وهي مربّعة الزوايا يقسمها شارعان اساسيان يقتطعان في الوسط على زاوية قائمة ويحيط بكل منها سماطان من الحوانيت . بل قد يكون العرب تأثّروا بدائرة المديرية الحضرية الرومانية في القسطنطينية مثلًا ، فقلّدوها في انشاء دائرة « المُحتسب » . واذًا فان لنا ملءُ الحقّ بالقول ان بعض ميزات المدن المغربية ، التي تظهر اصلًا غريبة عن شاطئ المتوسّط الغربي ، كالقيسارية مثلًا ، ان هي الّا ظاهرات سورية نقلها الامويون الى الاندلس اولًا ، ومنه انتقلت الى افريقية الشمالية .

وعليه فلا يمكننا ان ندرس المدن السورية باسلوب تلخيصي سطحي قد يمكننا ان نسير عليه في درس سائر المدن الاسلامية .

اما اختيارنا دمشق مثالًا للمدن السورية فيبرّره الاعتبارات التالية :

١ً ان مدن الساحل تتصف بصفات خاصّة من حيث انها مرافئ بحرية ، ومن حيث مركزها في عالم البحر المتوسّط . ثم لا يخفى انها اكتُسحت وأُخربت مرّات عديدة ، بل ان بعضها نُقلت عن مركزها الاصلي كما جرى لطرابلس ، حتى اصبح من الصعب على الدارس ان يتتبع ظواهر تطوّرها بالوضوح الكافي .

٢ً اما مدن الداخلية الصغيرة كحمص وحماه والمعرّة وغيرها ، وكلّها جديرة بالدرس لعراقتها في القدم ، فليس لنا من المصادر القديمة ما يسهّل علينا وضع تاريخ لها .

٣ً بقيت المدن الثلاث الكبيرة التي تتوافر بشأنها المعلومات التـــاريخية ، وهي اورشليم وحلب ودمشق . اما اورشليم فصرفنا النظر عن اختيارها بسبب مركزها الديني الخاصّ، وبسبب احتلال الصليبيين ايّاها ، فزيادة فصل جديد في تاريخها الصعب المعقّد. اما حلب ودمشق فقد اخترنا منهما الاخيرة لأنها لم تزل ، منذ الفتح العربي ، عاصمة سورية. وهكذا فان تأثير العوامل السياسية ، المآتة بالصلة القومية الى التاريخ الاسلامي العـــامّ ، يظهر فيها على وضوح اتمّ منه في ظهوره في حلب.

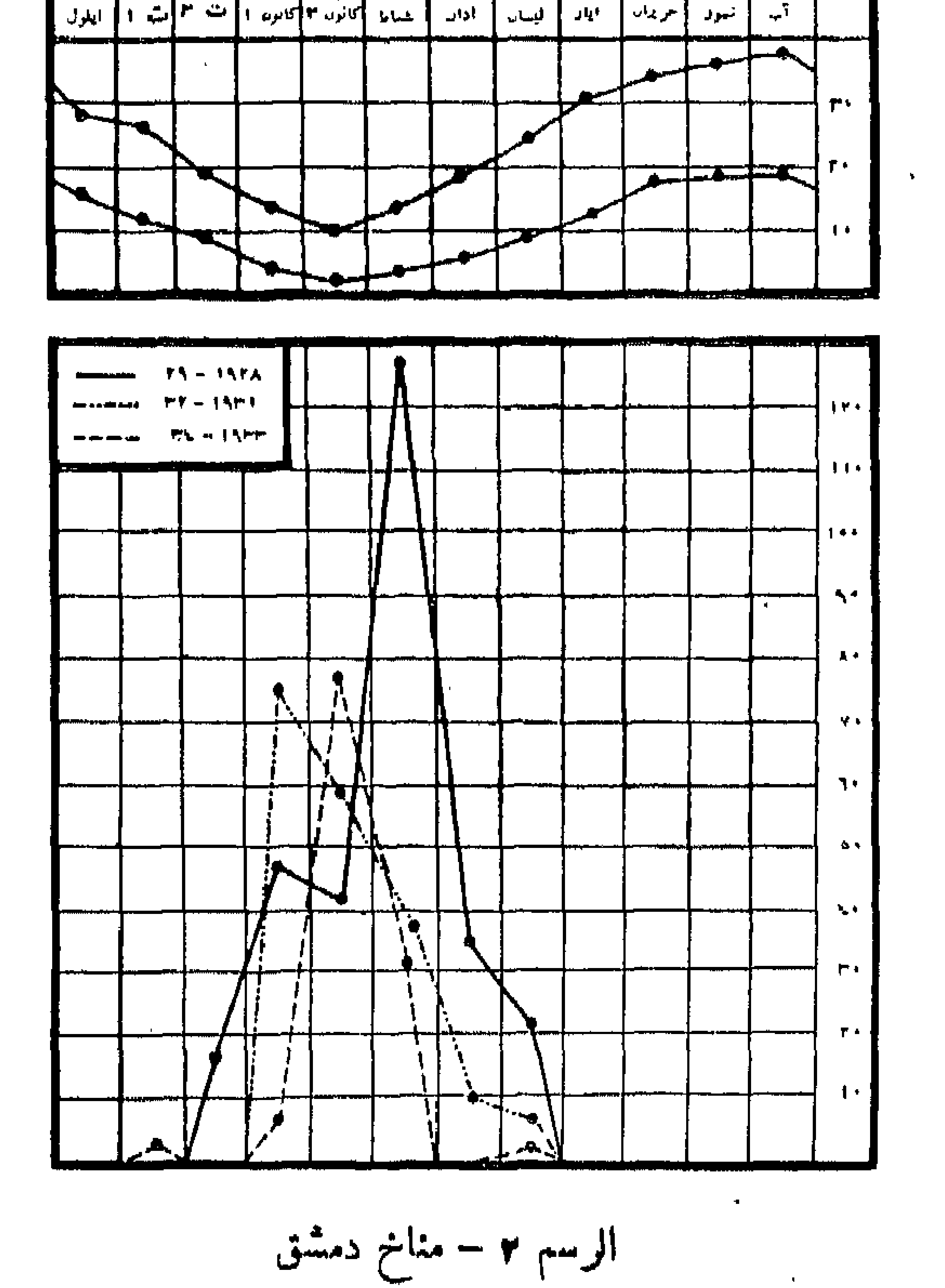
موقع دمشق

تقع دمشق تقريباً على الدرجة الواقعة عليها فاس من العرض ، وعلى علوّ ٦٩٠ متراً عن سطح البحر ، عند اقدام المنحدر الشرقي لانتيلبنان ، في اصل تلك السهول الفسيحة الممتدّة شرقاً وشمالاً بشرق حتى الفرات ، وجنوباً حتى قلب جزيرة العرب (الرسم ١) . وبقعتها قاسية جافية لا تظهر ، لاول وهلة ، معدّة لازدهار المدنية فيها . ذلك انها ، على الرغم من قربها للبحر (١٠٠ كيلومتر) ، تشارك صحارى بلاد العرب الشمالية في مناخها الجافّ ، لان قمم لبنان وانتيلبنان الشاهقة تؤلف حاجزاً متتابعاً يمنع عنها غيوم البحر المتوسط، فيخفّف كثيراً من حركة الامطار ، حتى تُصبح على غاية من الشذوذ ، سواء أنظرنا الى توزيعها على ايام السنة أم الى كميّتها (الرسم٢) وهي ، على ايّ حال، لا تتجاوز كميتها ٢٥٠ الى ٣٠٠ مليمتر ، ولا تتسع ايامها الى ما وراء الثلاثة الاشهر تقريباً . اما الربيع والخريف فقصيران يأكل منهما. الصيف السوري القاسي ممتدّا من نيسان الى تشرين الثاني ، متّصفاً بجفاف تامّ تتجاوز فيه الحرارة النهارية ٣٥ درجة في الظلّ ، ويزيد وطأته شدةً تلك الرياح الغربية العاصفة التي يستدعيها الفراغ الهوائي في الصحراء العربية . وعلى الجملة فان مناخ دمشق يتصف بدورين متميّزين : دور شتاء قصير جدًا قليل الامطار ، ودور جفاف طويل تختلف حرارته كثيراً بين الليل والنهار . فهو مناخ الصحراء يلطّفه بعض الشيء ، ارتفاع الموقع ، وقربه من البحر .

ومن ثمّ فلم يكن من المنتظر ان نرى ، في هذه المنطقة ، من النبات ما يكفي بكميته ، وخصوصاً بدوامه ، للقيام بحياة الحيوان والانسان . بيد ان الانسان توفّق ، فانتزع من القفر بقعةً صغيرة جعلها من اغنى المناطق الزراعية في آسية الغربية ، مستغلًا ، في ذلك ، على افضل ما يمكن من الاستغلال ، مواهب



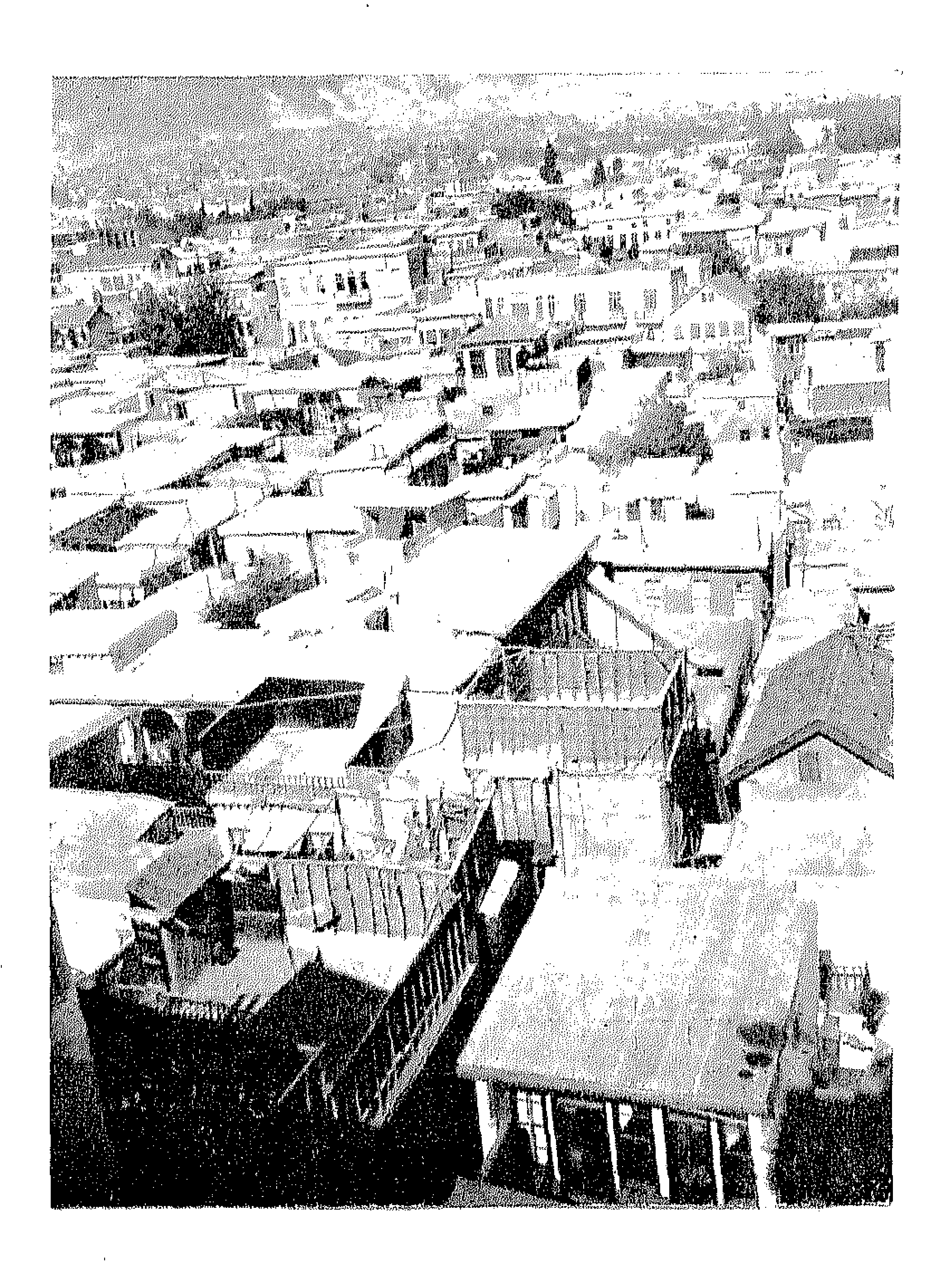
الرسم ١ — موقع دمشق



معدّل الحرارة

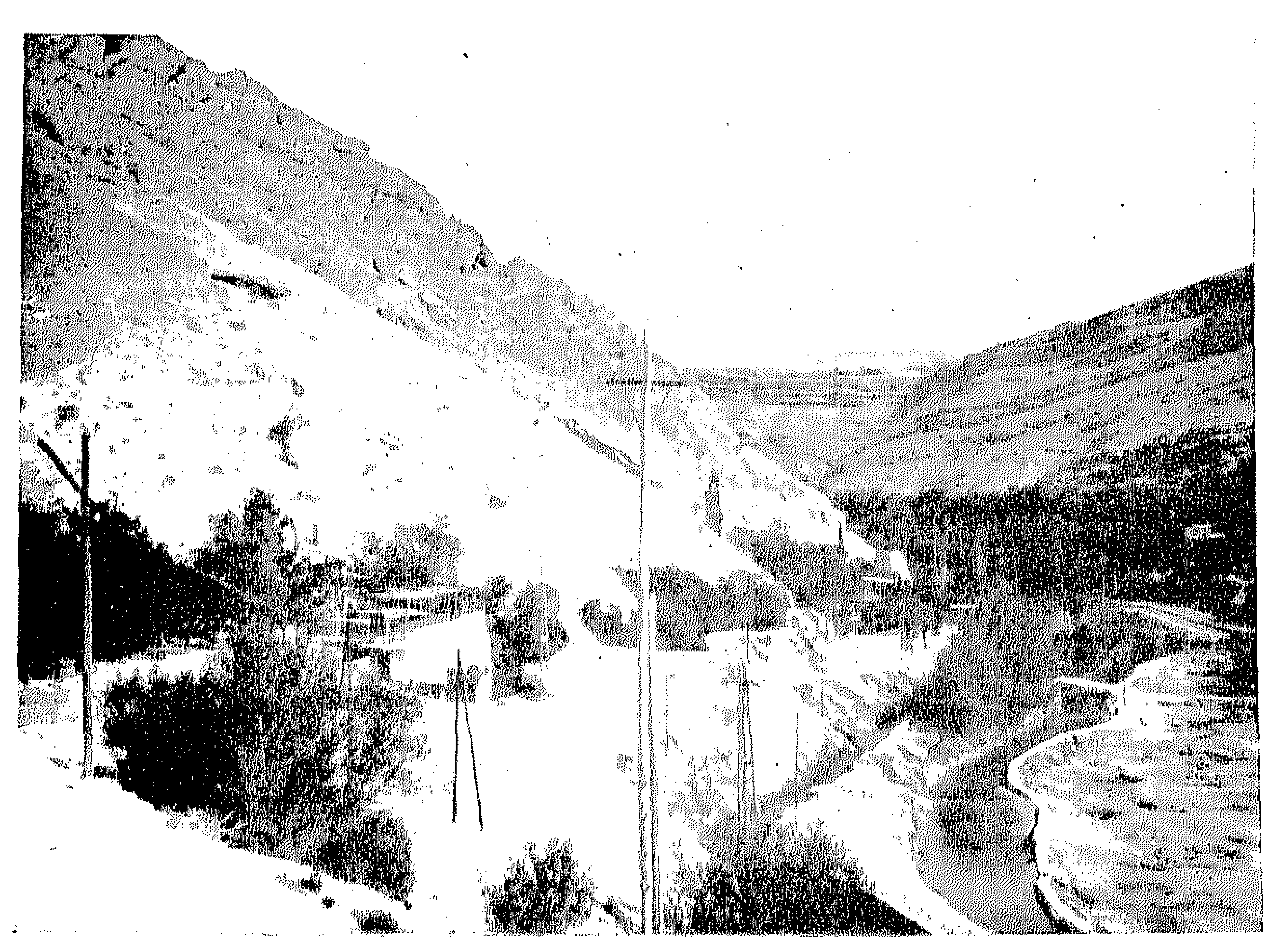
معدّل الامطار

الرسم ٢ — مناخ دمشق



الرسم ٣

من مناظر
دمشق العامة



الرسم ٤ – وادي النهر قبل دمشق



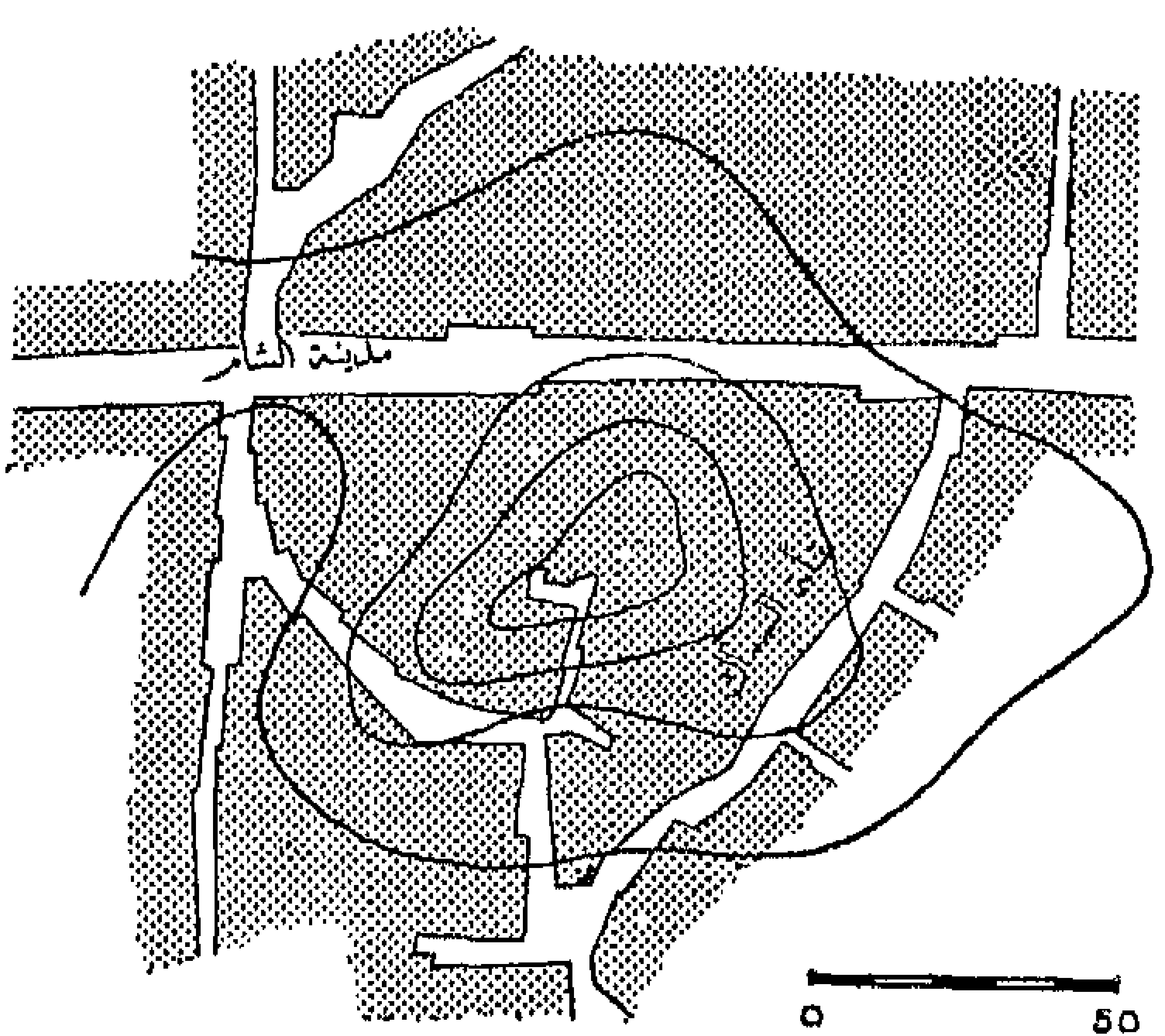
الرسم ٥ و٩ – من تفرّعات النهر في مدخله الى الواحة – وفي وسطه القناة القديمة المعروفة بنهر بانياس او « أبانة »



الرسم ٦ – من مناظر الواحة في سفح الجبل

الرسم ٧ – الطرقات حول دمشق

١ – منخفض الاردنّ
٢ – من ١٠٠٠ الى ١٥٠٠ متر
٣ – من ١٥٠٠ الى ٢٠٠٠ متر
٤ – فوق ٢٠٠٠ متر
٥ – حرّات بركانية



الرسم ٨ – التلّ القديم

عقله وعزيمتـــه ، مستفيداً من النعمة الوحيدة التي منّت بها الطبيعة على تلك المنطقة ، الا وهي كثرة المياه، هي النهر المتدفق من الجبل على علو ١١٠٠ متر .

يخرج النهر من انتيلبنان ، فيسير اولًا في وادٍ ضيّق ، (الرسم ٤) ثم يتسلّل الى السهل، حتى يتغلغل بعيداً في الصحراء ، فتمتصّه الرمال في قعر صحن رحيب يملأه بالمستنقعات الفسيحة . ولقد كان في علوّ مخرجه واتجاه واديه في القسم الاعلى من المجرى ، ما يجعل له صفة السيول المندفعة في الشتاء ميـــاهاً متدفقة باردة ، الجافّة في اكثر ايام السنة ؛ لو لم يمدّه ، على نحو عشرين كيلومتراً قبل دمشق، ينبوع فيّاض يغدق فيه ، ايام الشحائح ، مقدار خمسة امتار مكعبة في الثانية . وبفضل هـــذا الينبوع الدائم ، اصبحت الحياة ممكنة في تلك البقعة للنبات والحيوان ، وبالتالي للبشر ، على رغم قلة الامطار واضطراب مواعيدها . بيد ان الوادي مـــا كان ليتجاوز مظهر الشريط الضيّق من الخضرة وسط تلك الصحاري الجرداء المحرقة ، لولا دهاء الانسان وجدّه في العمل على انشاء طريقة الريّ دقيقـــة التصوّر (الرسم ٥) تحمل الماء بعيداً عن مجرى النهر ، فتروي برطوبتها المحييـــة تلك الارض الظمأى فتجعلها قابلة للزراعة موجدةً واحة اصطناعية يبلغ طولها العشرين كيلومتراً . (الرسم ٦)

ويوافق ذاك المناخ مزروعات البحر المتوسّط كالقمح، والزيتون ، والكرم، والرمان . بيد ان وفرة المياه توجّه الزراعة الى ناحية اخرى فيصبح اكثر نباتها من الاشجار المتعوّدة الرطوبة الدائمـــة في المناطق الشمالية كالمشمش ، والجوز ، والاكيدنيا ، والحور ، والصفصاف، والدلب . ولكن الشتاء القاسي، وهو نتيجة ارتفاع البقعة ، يحول بينها وبين زرع الليمون والنخل .

وهكذا تزدهر تلك الواحة بالمزروعات المتنوّعة ، فتأهل ضواحيها بالسكان . على ان استنقاع المياه في البرك العديدة المهيّأة لريّ البساتين يسهّل انتشار مرضين هائلين هما الحمّى التيفيّة ، والبُرَداء .

وهناك غير ما تقدّم من مساوئ موقع دمشق . فليس في تكوين الارض عقبة واحدة جديرة بان توقف سير المكتسح ، وتضمن للحامية الظهور عليه . ثم ان الطريقة التي اتسعت بموجبها مدينة دمشق ، مهما تكن طبيعية معتدلة ،

فانها تسهّل على المكتنسح ان يقطع الماء على القسم الاكبر من السكّان.

وعلينا ان نشير كذلك الى خلوّ المنطقة من حجر البناء. فان المدينة القائمة على بسائط من الحصى التي يجرفها النهر، لا يمكنها ان تستخدم من موادّ البناء الّا صلصال الارض وجذوع حور الوادي، وهي موادّ ضعيفة، بعيدة عن الجبال.

واهم تلك النواقص صعوبة المواصلات بين المدينة والبحر (راجع الرسم ٧). كيف لا ومن شاء قطع الحاجز الجبلي المزدوج في لبنان وانتيلبنان عليه ان يقطع إما الثنايا المرتفعة المغمورة بالثلج كل شتاء، او الاودية الضيّقة العميقة؛ وكلها طرقات صعبة في كل زمن، بل انها لا تقطع على مدة من السنة. اما الى الشمال والشرق والجنوب، وهي الجهات المطلقة، فالمواصلات صعبة كذلك لا تسهّل حركة للمبادلات شديدة. وسبب ذلك تلك الحرّات المنبسطة في بعض المناطق، ونقص الماء طول الطريق، والخوف الدائم من هجوم لصوص البادية. فان تكن دمشق، في هذه الاحوال، قد صارت مركزًا تجارياً فانما كان ذلك لأنها سوق لمنطقة زراعية، ولأنها مركز صناعي مهمّ. فهي مدينة في ازدهارها لهذه الصفة المزدوجة اكثر منها لموقعها الجغرافي. واذًا فان اهمية المدينة هي التي عزّزت حركة الاخذ والعطاء، بضدّ ما نراه في غيرها من المناطق.

اما صعوبة اتصالها بالبحر فقد نتج منها ان مصير دمشق تعلّق بمصير الشرق خاصّة، فانحرفت عن البحر المتوسط، وغدا تاريخها يهيمن عليه البدوي. واذا بهذا يظهر فيه، وفقاً للحوادث المتقلّبة، تارةً صعلوكاً جائعاً عرياناً يروعه جوّ المدينة ولكنه يضطرّ الى دخولها، فيبدل بمنتجات ماشيته ما يحتاج اليه من الحبوب والسلع، وطورًا سيّدًا عاتياً جشعاً مخرّباً. وهكذا فان وجود البدو على ابواب دمشق وفّر لها منافع جمّة، ولكنه وفّر لها كذلك مخاطر مقلقة. وهو ما انتبهت له السلطات المتتابعة على حكم المدينة.

المدينة الاولى

من الطبيعي ان لا يكون لدينا نصّ اكيد على عهد تأسيس المدينة ، ولا على الحوادث التي احاطت بنشأتها .

بيد ان الاشارات الاولى الى دمشق في النصوص المصرية والاشورية تظهر لنا المدينة مركزاً اقتصادياً وسياسياً ينال اهميته ، دون شك ، من خصب الواحة المحيطة بها . ولا يخفى ان هذا الخصب مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالري ، والري وحده يضمن الحياة الدائمة للنبات في ارض تحرقها الشمس مدة ثلاثة ارباع السنة . فيلزمنا اذاً الاقرار بان تفرّعات النهر العاملة على ازدهار تلك الواحة كانت موجودة ، إمّا بشعبها المهمة او بقسمٍ منها ، منذ منتصف الالف الثاني قبل المسيح على اقل تقدير . ولا يسعُ بالتسا عن فقر المعدّات في تلك العصور ، ولا يُعرف منها الّا الحجر ، والخشب ، والبرونز على مقدارٍ مـا . ولنتأمل الآن بطريقة الريّ وما تظهر عليه من تشعُّب وتركيب ، ومـا يفرضه تصوّرها وحده من معرفة واسعة بنواميس المائيات الاساسية . ولنجرّب ، بعد هذا ، تخمين القرون التي مرّت قبل ان يتوصّـل الانسان الى إحكام العلم وامتلاك المعدّات الضرورية في سبيل تشعيب ميـاه النهر ؛ فيبدو لنا ازدهار منطقة دمشق الاقتصادي ، كما تبدو لنا عظمة المدينة نفسها في آخر الالف الثاني قبل المسيح ، ثمرة الجهود المتتابعة دون انقطاع مدّة الالوف من السنين ، وبالتالي نهاية تطوّر طويل بطيءٍ .

وقد نتمكّن من رسم الخطوط الاساسية لهذا التطوّر ، اذا ما استندنا الى خصائص المدينة الجوهرية في القرن الحادي عشر قبل المسيح . ونحن نعرفها في هذا القرن معرفة تاريخية واضحة بفضل النصوص الواردة في العهد القديم .

تبدو دمشق ، في هذا العهد ، مدينةً ذات اهمية تتجاوز البيئة القريبة

المجاورة ، حتى انهـا تظهر في المسرح الدولي فتمثّل دورها في مصير الشرق الادنى بكامله . كانت دمشق ، اذ ذاك ، عاصمة المملكة الارامية . وهذه المملكة اعظم دولة في سوريـة ، ذات منعة وسطوة ، تفرض ارادتها في اكثر الاحيان على مملكة اسرائيل المجاورة ، بل انها كانت تقـاوم دولة الاشوريين نفسها ، وتنتصر عليها مرّات . وقد قرنت هذه السطوة السياسية بالازدهار التجاري ، متصلةً بفينيقية وببلاد الجليل مصدرةً اليها القمح والخمر . وكانت ، فوق ما تقدّم ، مركزًا دينياً يتمتّع هيكلها بنفوذ لم يفقده الّا في اواخر ايام الوثنية .

وعلى ما نشعر به من عوز للوثائق الاصلية المبـاشرة ، فاننا نتمكن من تصوّر مظهر هذه المدينة الارامية ، في صفاتها المهمّة على الاقلّ .

ونحن نعرف نواتها الاصلية وهي هضبة تقع في قلب المدينة القديمة ، مشرفة على الأرض المجاورة من ارتفاع يبلغ خمسة الى ستة امتار (الرسم ٨) . ولما كان بعيدًا ان تكون هذه الهضبة طبيعيّة ، لزمنا ان نرى فيها « تلًا » ، اي واحدًا من تلك المرتفعات التي تكوّنها ، قرناً فقرناً ، آثار الابنية القديمـة المتهدّمة ، وما يقـام عليها من ابنية حديثة تُرفع على انقاض الاولى بعد ان يُسوّى سطحها . وانه لمن الصعب ان نقدّر قطر هذا التلّ الاصلي وقد تضخم شيئاً فشيئاً بارتفاع مستوى الارض المتتابع ، حتى ان ارض القرن الثالث قبل المسيح تقع على ثلاثة او اربعة امتار تحت المستوى الحالي . على انه من الراجح ان يكون هنا ، في هذا التلّ ، موقع قلعة المدينـة الاولية ، وموقع قصر ملوك دمشق . يؤيد هذه الفرضية بعض التأييد ذلك الاسم التقليـدي الذي كان عالقاً بهذه الناحية من المدينة ، زمن الفتح العربي ، وهو اسم «البريص» ومعناه «القلعة» . واصله يوناني-آرامي نتحقق اثره في اورشليم حيث يدلّ على القلعة الانطونية كذلك .

ونعرف في دمشق ايضاً موقع الهيكل القديم حيث كان يُعبد الاله السوري الكبير هَدَد ، إله الصاعقة . وهو يقابل ، دون شكّ ، موقع الهيكل الكبير الذي بُني ، في العهد الروماني ، لعبادة جوبيتر ، وقـد أُدمج بالاله هدد .

نعرف ذلك من ان الهيكل السامي تحيطه عادةً منطقة تدعى «الحرم»، فتجعله مستقرّ التخطيط، ثابت الموقع . اما مظهره البنائي فسندرسه في ما يلي .

ثم ان لدينا معلومات دقيقة واضحة في ما خصّ امر توزيع المياه الخطير، وذلك بفضل حادثة نَعمان الابرص الواردة في الفصل الخامس من سفر الملوك الرابع، وفيها ذكر «لنهري دمشق: أَبانَة و فَرْفَر».

اما أَبانَة فمن الراجح انه المسمى« بنهر بانياس»، وهو احد الاقنية التي لا تزال، الى يومنا هذا، تمدّ بالماء قسماً من المدينة القديمة . يؤيـد ذلك ان اسمه العربي القديم «باناس» قد يوافق النقل اليوناني «أباناس» للاسم الوارد في سفر الملوك . ثم ان تلك القناة، بين سائر الاقنية المتفرّعة عن النهر، تظهر اقصرها مدًى واسهلها حفرًا (الرسم ٩)، وهو ما قد يرجّح قدمها . وهناك، فوق ذلك، دليل جدير بالاعتبار على هذا القدم، وهو ان القناة المذكورة تمدّ بالماء الهيكل والمدينة الاصلية .

اما فَرْفَر فقد لا يكون الا النهر نفسه أطلق عليـه هذا الاسم لفورانه واندفاع تيّاره، وفي الاسم ما فيه من الدلالة على حركة ناشطة أشِرَة كحركة جناحي الطائر او «فَرْفرة» الفراشة .

وليس من شك كذلك في ان القنـاة التي ظلّ عالقاً بها الاسم الآرامي «نهر ثورا» او الثور، كانت تمدّ اذ ذاك في كنف الجبـل . وهي اعظم الاقنية اهميةً في ازدهار الواحة الزراعي مجريةً ٢٤/١٤ قيراطاً من المياه راويةً اكثر من ٦٠٠ هكتار .

وهكذا فان الهيكل والتلّ، لاحقاً به القصر، يمثّلان المركزين اللذين تألف حولها المجتمع الحضري . بيد اننا لا يمكننا تخمين مساحة المدينة لجهلنا تخطيط السور المحصّن الذي كان يحيط بها، وفقاً للعادة المعهودة في ذلك العصر .

اما مظهر المدينة اذ ذاك، على ما نتصوّره بالاستناد الى الوثائق الظاهرة من الحفريات، فقد كان لا يفرق كثيراً عن مظهر القرى المجاورة اليوم، وهذه قد نشأت وتطوّرت في الحالات نفسها . ويجب في ذلك ألّا ننسى ما تتصف به العوامل الطبيعية من الاستقرار التامّ، وما يظهر عليـه السكان المزارعون في

كل مكان من العراقة بالقِدَم . وعلى مثال كل المجتمعات الحضرية المتكوّنة دون تصميم سابق ، كانت دمشق ، دون شك ، بعيدةً عن التنظيم والترتيب. فكان بناء البيوت ، وفتح الطرقات ، لا يعرف قواعد الا تلك التي تفرضها طبيعة الارض ، وحدود الملكية الخاصة ، واهواء الافراد . فليس من اهتمام بمظهر المدينة ولا بما يجب ان يتصف به من فنّ وجمال . واين هذه الاعتبارات من بنائي ذاك العصر ، وزيّ البناء العادي يصرفهم عنها ، ولا مادّة لهم الا الطين يستخدمونه تارةً دكًّا ، وطورًا لِبَناً غير مطبوخـة يملأون بها خلايا هيكل يصنعونه من الخشب ، من جذوع حورات الوادي . وهي طريقة في البناء بسيطة ، قليلة النفقات ، لا تتطلّب الا الموادّ الحاصلة بين ايديهم . ولا يخفى ان مثل هذه البنايات غير شائقة ولا ممتعة ، فلا تبدو لعـين الناظر الا مكعّبات طامسة الجدران ، مطليّتها بمزيج من التراب والقشّ المتقطّع . وهي ، فوق ذلك ، عرضة للانهيار .

اما البنايات الكبيرة فقد كانت ، على الارجح ، مبنية على الطرق التقليدية نفسها التي رأيناها في البنايات الخاصّة . ولكن هذه الاساليب الابتدائية في البناء لا تنفي بعض الترف كان يؤخذ به في تزيين داخلية البناية . ولقد كان في الهيكل مذبح على شيء من الجمال حتى ان احاز ، ملك يهوذا ، اخذ شبهاً عنه فبعث به ليوضع في هيكل اورشليم . ونحن نعرف شيئاً عن اثاث القصر وقيمته الفنية . وذلك بفضل اكتشاف اثري في الجزيرة اطلعنـا ، في اطلال قصر اشوري ، على بقايا مهمّة من محفّة جليلة كانت للملك حازائيل الارامي (٨٤٤ — ٨١٢ ق.م.). وفي تلك البقايا عدد يُذكر من الصفائح العاجية ، مزينة بالحفر وبالنقش الناتئ ، وبالتذهيب في بعضها ، وفيها صفائح من البرونز المنزّل بالمينا . اماّ عناصر الزخرف في هذه القطع الفنية فمأخوذة كلها إماّ عن مصر ، او عن أشور ، او عن مجموعة الفنّ الايجي . وبصرف النظر عن بعض التحويرات المميزة ، فان هذا العمل على توفيق النزعات الفنية لدليل على ان وراءه فكرةً فنيقية .

هذا مجمل ما نعرفه اليوم عن دمشق الآرامية .

بيد انه مهما تتصف به هذه المعلومات من غموض ، ومهما تستند اليه من فرضيات ، فانها كافية لترشدنا الى سبب وجود المدينة ، والى اتجاه تطوّرها ، منـــذ ألوف السنين السابقة ، تلك المدة التي لا تفيدنا عنها الاصول الادبية ولا الوثائق الراهنة . فيمكننا ، والحالة هذه ، ان نعيّن نقطة مهمّة هي موقع المدينـــة . ذاك الموقع الذي دلّ عليـــه مركزه الاصلي ، اي التـــلّ والهيكل ، والذي كان قائماً الى ضفة النهر ، لا في الوادي نفسه ، بل على مرتفع مشرف على قعر الوادي . وهو لا يكاد يختلف عن موقع القرى في المناطق الزراعية المستندة الى الريّ . فان كل بقعة من الارض قابلة للريّ في تلك المناطق ، اياً كان صغرها ، لأثمن من ان تُخصّ بغير الزراعة . ولهذا يمكننا القول انه وُجد اولاً ، في هذا المكان ، قرية كانت تعيش من حبوب السهل ، ومن محصولات الخضر المزروعة في قعر الوادي المروّية بماء النهر على اساليب ابتدائية بسيطة . وهكذا ، على الارجح ، كانت نشأة مدينتي حلب وحماه . ولا يُعترض على هذه الفرضية بضيق الارض القابلة للزراعة على ضفتي النهر . فان كثيراً من القرى السورية لتغتبط اليوم لو كان لهـــا مقدار تلك المساحة الضيقة من الارض الرطبة الخصبة ، وان كانت لا تكفي طبعاً لحياة مجتمع كبير من السكان .

أما كيف اصبحت هذه القرية الزراعية الصغيرة مركزاً حضرياً ، بل عاصمةً قـــادرةً على مجابهة المكتسحين الاشوريين ، فقد يكون ذلك نتيجة للفتح الآرامي . وقد يمكن الفرض ان هؤلاء الآراميين أتوا من بلاد ما بين النهرين ، وهي البلاد المشهورة بالريّ العريقة بالمدنية ، باساليب وطُرق زراعية اكمل من اساليب السكان الوطنيين ، فاخذوا يمهّدون ضفتي النهر لتوسيع المنطقة المروّية حتى انتصروا على الصحراء فأخّروا حدودها شيئاً فشيئاً امام الاراضي المزروعة . وهناك ما يؤيّد هذه الفرضية في اسم المدينة نفسه . فاننا بينا نرى قرى الواحة جميعها تُسمّى بالاسماء الآرامية ككفربطنا وعقربا وغيرهما ، اذا باسم المدينة وحده ، وهو الاسم الذي تدعوها به النصوص المصرية والاشورية ، والذي حفظته مـــدة القرون العديدة : دمشق ، يبدو غريباً عن اللغات السامية فلا

يمكن شرحه بالاستناد الى احداها . ثم انها البلدة الوحيدة ، في كل تلك المنطقة ، التي تظهر قائمة على النهر نفسه ، لا على مجرى متفرّع عنه . هذا المظهر الغريب المزدوج: في اسم المدينة ، وفي مركزها ، يدفعنا الى الفرض ان لدمشق نشأةً مختلفة عن نشأة سائر القرى القائمة في تلك المنطقة . فنقول انها بعد ان انشأها السكان الاصليون في زمن لا نعرفه ، ولكنه عريقٌ جدًّا في القدم ، استفادت مما اتى به المهاجرون من طرق التحسين في استغلال البقعة المجاورة ، فازدهرت حتى اصبحت ، دون غيرها من القرى الاصلية ، سوق الواحة كلها وسوق البدو الرّحل . وقد تابعت ازدهارها شيئاً فشيئاً كلما اتسعت الاراضي المزروعة حول النهر، وها هي تبدو مدينة متوسطة تحيط بها الضواحي الزراعية ، فعاصمة اقتصادية وسياسية للمنطقة جميعها ، حتى تظهر « رأس بلاد آرام ».

***

ثم يظفر الاخيمينيون فيضمّون سورية لبلادهم ، وتنتهي الحقبة الاولى من تاريخ دمشق . وذلك ان عوامل ثقافية جديدة توثّر فيها سريعاً ، فتعجل تطوّرها الى اتجاه جديد . على انها تظلّ دائماً على ما ظهرت عليه في هذا العصر ، اي اعظم مجتمع حضري في سورية الوسطى ، محتفظة بكل الصفات التي ستزداد بروزًا في القرون التالية ، الا وهي : كون دمشق مركزًا للحكومة ، ووسطاً اقتصادياً ، ومقاماً لهيكل كبير.

المدينة اليونانية - الرومانية

كان شتاء السنة ٣٣٣ ق. م. محطـــة حاسمة في تطوّر دمشق. فانّ المدينة اتصلت، اذ ذاك، اتصالاً وثيقاً بالثقافة اليونانية. كانت دمشق قــد أُدمجت، بلا عنف، بامبراطورية الاسكندر، بعد معركة إيسوس؛ فاصبحت، على اثر وفاته، من نصيب السلوقيين، بعد ان نازعوا البطالسة عليهــا وعلى سائر مناطق سورية المتوسطة. وظلّت في ايديهم الى يوم تخلّصت فيه رومة من قرطاجة، فأخـــذت تتدخّل بشؤون الشرق تدخّل السيد المطلق. فانتزعت دمشق من ورثة انطيوخوس. وكان ان الامبراطور پومپي اعلن سورية مقاطعة رومانية في سنة ٦٤ ق. م. فالتحقت بالغرب سياسةً وثقافةً حتى الفتح العربي سنة ٦٣٥.

اما دمشق فكانت طول هـــذه القرون السبعة، بفضل سيادة العناصر الغربية، كأنها مقتطعة من آسية، فهي أقرب الى المدن الاوروبية اتجاهــاً واتساقاً في تطوّرها.

ظلّت مدة القرون الاولى للسيادة المقدونية تحيا حياتها العادية المتتابعة على وتيرةٍ واحدة غير متجاوزة المركز الاقتصادي المحلي الذي عرفناه، حتى خرجت فجأةً من الظلام، فتحوّلت، في زمن لا نعرفه، الى مدينة يونانية.

ولا يخفى ان خلفاء الاسكندر، بطالسةً وسلوقيين، اهتموا كل الاهتمام بمتابعة عمله. كانوا يونانيين مؤمنين بتفوّق مدنيّتهم، فرأوا ان يرفعوا الشعوب التي اخضعوها الى مستوى ثقافتهم الخاصة. ولهذا اكثروا في مناطق الامبراطورية من تلك المدن الجديدة يُنزلونها اليونان او الآخذين باليونانية، على أمل ان تلك الثقافة تتّسع شيئاً فشيئاً فتبسط نفوذها على ما حولها حتى يأتي يوم يمتزج

فيه اليونان والاعاجم في ثقافة واحدة . وقد رموا بانظارهم الى سهول سورية الفسيحة المزدهرة فيها معالم المدنية الوطنية ، فانزلوا في كل من مدنها الكبيرة، حلب ، وحماه ، ودمشق ، طارئةً يونانية كانت غايتها ان تعادل تأثير الجمهور الآرامي وان تستسيغ هذا الجمهور ، اذا امكن .

ونحن لا نعرف شيئاً عن اسم طارئة دمشق ولا عن تاريخ تأسيسها . الا اننا نتحقق تارةً وجود طارئة باسم ارسينوي (*Arsinoé*) يُنشئها بطليموس فيلادلف في سورية المتوسطة في منتصف القرن الثالث ق. م. وطورًا نرى اسم ديمتريا (*Demetrias*) لطارئة أسسها احد ملوك السلوقيين في السنة ٩٥ او ٨٨ ق. م . واحياناً يجعل بعضهم طارئة دمشق ذات علاقة بما انشأه انطيوخوس التاسع السيزيكي في المدينة نفسها على اثر قسمة سورية سنة ١١١ ق. م وليس ما يمنع ان تكون هذه الحوادث الثلاث تناوبت دورياً على الموقع نفسه فتكون الاولى مؤسسة بطليموس المدعوة آرسينوي، يليها اختيار دمشق عاصمة على عهد انطيوخوس التاسع ، ثم انشاء طارئة جديدة مدعوة ديمتريا .

بيد ان اليونانيين الطارئين على دمشق ، في هذه الاحوال ، لجدّ بعيدين عمّا كان عليه رفاق الاسكندر . فان هجرهم للوطن الاصلي ، وزواجهم بالنساء السوريات ، والمناخ الغريب ، وسهولة المعيشة ، كلّ هذا أثر فيهم فغيّر ميزتهم الاصلية حتى اصبحوا اشبه بمواليد المشرق من الغربيين (*Levantins*) . ولكنهم ظلّوا يونانيين بشعورهم وارادتهم ، محافظين ، ما امكنهم ، على لغتهم وآلهتهم ، واوضاعهم السياسية وثقافتهم ، عاملين ، في مقاماتهم الجديدة ، على ايجاد نظام خاص يتفق ومرافق حياتهم الاجتماعية ، ظاهرًا في طريقة البناء وخصوصاً في ذلك العنصر الاساسي لكل مدينة يونانية وهو الساحة العمومية المعروفة بالأغورا (agora) حيث تُقام السوق ، ويجتمع الوطنيون ، وظاهرًا كذلك،اذا كان اليونانيون وافري العدد ، في ساحة الالعاب الرياضية ، والمسرح . لهذه الاسباب نرى اليونانيين الطارئين لا ينزلون داخل المدينة الوطنية نفسها .

واذًا فقد اتسمت دمشق بتلك السمة التي نتحققها كلما اجتمعت ثقافتان مختلفتا المستوى ، او متباينتا الصبغة، فاضطرتا الى الحياة معاً في المنطقة نفسها .

فاصبحت مدينةً مزدوجةً كما نرى اليوم في شنغاي والدار البيضاء مثلاً . اقام الطارئون الى جنب المدينة القديمة ، في احياء جديدة بنوهـا ونظّموها وفقاً لحاجاتهم الخاصة ، وطرق معيشتهم المستقلة ، فأسسوا الى شرقي المدينة الآرامية الاصلية المتجمّعة حول هيكلها ، مدينـة يونانية محيطةً بساحتها العامة . واذا بالمدينتين تعيشان ، مدة القرون العديدة ، جنباً الى جنب ، ولا تتفاعلان تفاعلاً عميقاً .

ومما يميز هـذه الاحياء الجديدة عن المدينة الساميَّة ما يراه الانسان لأول وهلة من تناسق البناء وموافقته لتصميم منظّم . فان البيوت ، بدل أن تتكردس بعضها فوق بعض دون ترتيب ، تبدو منسقة في احياء مستطيلة تتعادل مساحةً ، وتخترقها شوارع مستقيمة تتقاطع على زوايا قائمـة . وقد روعي في دمشق ما روعي في سائر المؤسسات اليونانية في سورية من اتساع الشوارع اتساعاً يعادل متوسط المساحة لبيت السكن . فاتت الاحياء بالغةً مساحة ١٠٠ متر في ٤٥ متراً على التقريب . وقد حُدّد هـذا العرض على طريقة تمكن من بناء صفّين متوازيين من البيوت في الحيّ الواحد فتتقابل مؤخراتها ، ويكون لكل منها اتصال مباشر بالطريق العام . اما عرض الطريق فكان قليلاً لا يتجاوز ثلاثة الى خمسة امتار . ولكنه كان كافياً عهد لم يكن من طرُق النقل الا الدواب ، واضخم ما يمكن ان يمرّ بالشارع جمل يحمل عِدلَين . واما الساحة العامة فاننـا نجهل مساحتها ، وان كنا نعرف موقعها .

وليس من شكّ في ان هذه المستعمرة اليونانية في دمشق ظلّت ، كسائر المستعمرات في سائر المدن ، ذات اهمية ثنويّة بالنسبة الى المدينة الاصلية التي التصقت بها . وعلى كلّ فقد كانت اقلّ عـدداً واضيق رقعةً ، حتى العهد الروماني ، فبدأت تتقدّم وتتسع بفضل ازدهار اقتصادي نادر المثال .

***

وكان سبب هذا الازدهار عامل جديد ، بعيد الاثر في النجاح ، عامل لم تعرفه البلاد قبل دخول رومة ، الا وهو السلم . ففي الداخل نظام تام يسود حتى البدو فيضبطهم هائبين ، وفي الخارج لم تكن الحروب ضدّ الفرس لتقف

حاجزًا في سبيل تقدّم سورية الاقتصادي ، بل انها افادت المدن موردًا جديدًا للثروة ، وذلك ان الجيوش المعسكرة ما وراء الفرات كانت بحاجة الى القمح والزيت والخمر . ثم ان حركة المعاملات الواسعة في مناطق الامبراطورية الغربية لفتت انظار التجار ، فعادوا الى اتخاذ طرق البحر متاجرين حتى رومة وبلاد الغال . وكذلك القول عن تقدّم الزراعة ، وقد اصبحت محميةً من اكتساحات البدو ، مزدهرة بفضل انشاء سدود جديدة . وها ان النقد يُتداول بكثرة في كل مكان ، وها ان المدن تكبر بسرعة عجيبة كانطاكية وتدمر.

وكان مما ساهم في هذا الازدهار المستند الى الثروة العامة ، ذاك النظام الاجتماعي . وقد احترمت رومة ، في كل مكان ، مؤسسات المدن اليونانية جميعها ، بل انها كافأت بعض المدن على ولائها فاعطتها ميزات دستورية تزيد في استقلالها ، كما حصل لدمشق مثلًا فانها نالت ، على عهد هدريانوس ، لقب « متروپول » ، ثم لقب « مستعمرة رومانيــة » ، على عهد الكسندروس ساويروس . وهكذا فان تلك المدن ، وقد اثرت وازدادت حركة ، لم تفقد شيئاً من سيادتها السابقة على مقدّراتها الخاصة . بيد انها ، وان لم يتغيّر مبدأ الحكم فيها تغيّرًا محسوساً ، فقد تأثرت دون شكّ بمرور الزمن وانقلاب الاحوال . ذلك ان الادارة الرومانية اخذت تبدل بذلك الاضطراب الفوضوي الذي طالما افسد حياة المدن اليونانية ، ميلها الى النظام ، وروحها الآخذ بالترتيب الرصين ، وفهمها للعمل المتتابع والحقائق المحسوسة . ولأول مرّة في التاريخ نرى المدن السورية تنمو وفقاً لمبادئ جدّ ثابتة ، وطبقاً لتشريع تفرضه الادارة البلدية عن اطلاع ومعرفة ، وغاية جهودها السعي في رفاهية الجمهور ، وتجميل المدينة ، واقرار النظام في سبيل الراحة العامة . وكلها جهود حضريّة تعمل على ان تُحلّ نموًّا مُوَجَّهاً محلّ ذاك النموّ الطبيعي الذي عرفتــه المدن سابقاً .

وقد ظهرت هذه الجهود في دمشق اولًا بانشاء مشروعين في سبيل الخير العام ، هما بناء سور يحيط بالمدينة ، وعمل قناة جديدة لماء الشرب .

اما السور ، وهو يجمع مساحة ١٠٥ هكتارات ، فقد كان يحيط بالمدينة

الارامية ، وبالاحياء الجديدة ، مبنياً على طريقة التحصين الروماني. اي انه كان مستطيلاً يبلغ ١٥٠٠ متر في ٧٥٠ متراً ، وتمتدّ اضلاعه مستقيمةً تماماً ، ما عدا في الجهة الشمالية وهي المشرفة على النهر ، الذي قام مقام الخندق ، فكان لا بدّ فيها من الالتواءات والمنعرجات. وكان في السور سبعة ابواب : ثلاثة منها في الواجهة الشمالية ، واثنان فقط في الواجهة الجنوبية وهي اصعب حماية ، واثنان ، وهما البابان المهمّان ، في الواجهتين الشرقية والغربية.

واما القناة الجديدة فقد دفع الى حفرها ازدياد عدد السكان . وهي لا تزال معروفة حتى اليوم باسم « القنوات » ولا تزال تمدّ بالماء اكثر من ثلاثة ارباع المدينة القديمة ؛ تتفرّع عن النهر عند دخوله في السهل ، قبل الوصول الى القناة الاصلية. وقبل ان تدخل المدينة ، تقطع احدى المنخفضات على جسر من قناطر معقودة . ولا شكّ في انها كانت تتصل ، في العصور القديمة ، بخزّان فخم تزينه تماثيل آلهة المياه.

وقد أُعيد بناء الهيكل من آساسه موافقاً لذوق العصر . ولكنه ظلّ محتفظاً، على مظهره الغربي الجديد ، بالمرافق والترتيبات الجوهرية في كل هيكل ساميّ . فظهر حوله سوران دائران احدهما بالآخر : يحدّد الاول منهما « حرَم الاله » (téménos) ، المتصف بصفة الملجأ او الملاذ ، بالغاً ٣٦٠ متراً في ٣١٠ امتار ، محفوفاً برواق من الداخل . وفي صدر واجهته الامامية مدخل مسقوف على اعمدة . اما واجهته الخلفية فقد تتابعت مستندةً اليها سلسلة مخازن الهيكل ومساكن السَدَنة . وفي وسط هذه الساحة الفسيحة يرتفع السور الثاني (péribole) ، وذرعه ١٦٠ متراً في ١٠٠ متر ، وفيه ، كما في السور الاول ، ذاك المدخل الفخم ذو الاعمدة ، وذاك الرواق الدائر المسقوف ، النافذة منه المداخل. وهذا السور يحيط بالهيكل نفسه المدعو سيلا او ناووس ، المخيّم على الوثن المعبود ، وعلى كنز الاله ، والقائم امامه المذبح ، وحوض الاغتسال . وكل هذا مبنيّ بالحجر المنحوت على الزيّ الكورنثي.

اما الاحياء الجديدة فظلّت على ما كانت عليه في العهد اليوناني، على الاقلّ في ما خصّ التصميم . فقد حوفظ ، في اتساع المدينة ، على ما عهدناه من طرق

تخطيط الشوارع ، وتقسيم البنايات الى منـاطق ؛ الا في ما ندر ، فان بعض التخطيطات انحرفت عن اتجاه الشوارع الاصلي . واذا قـارنّا بين مظاهر هذا الانحراف وبين الاسم العربي الذي أطلق عليها وهو «النيبطون» فاننا نستدلّ على انها من اثر النبطيين الذين احتلّوا دمشق مرّتين ، على العهد الروماني.

وكان ان بناء الاسوار اضطرّ الى توسيع الشوارع النافذة الى الابواب ، واهمها الجادّة الكبرى النافذة من الباب الشرقي الى الباب الغربي ، وهي محور المدينة . كانت تمتدّ خطاً مستقيماً ، على طول ١٥٠٠ متر ، مخترقةً البنايات المتراكمة في المدينة القديمة ، وقد اشتُملكت من اربابها ، متسعةً على عرض ٢٥ متراً ونصف المتر ، منها ١٢ متراً للطريق المرصوفـة بالبلاط ، وما بقي للرصيفين المسقوفين ، ووراءها الحوانيت المتتابعـة دون انقطاع تحت الرواقين المرفوعين على الاعمدة . وكانت هـذه الجادّة المستقيمة تزدان بالآثار البنائية تُقام في المفارق المهمة ، من ذلك ثلاث اقواس فخمة . وكان للمدينة جادّة اخرى الى شمال الاولى، تصل بين الهيكل والساحة العامّة ، وكانت هذه الساحة آخذةً من مدخل مسقوف ، محوطةً ، على ما نرى ، برواقين ، حافلةً دون شك بالهياكل ، والمقامات النذورية ، وتماثيل المحسنين الى المدينة (الرسم ١٠).

وان لنا في الاسماء العربية القديمة ما يكمّل معلوماتنا عن المدينة في ذلك العهد . فان الحيّ المدعو «الديماس» يقابل موقع « Dêmosion » اي «دائرة المالية» القائمة قرب الساحة العامّة . وكذلك الموضع المسمّى «الفُرناق» فانه يدل على مكان الفخّارات «fornaces» لا على اتاتين الكلس، لان بناء القوم كان بالطين . و«البريص» يُشير الى موقع القصر ؛ و«الفُسقار» « foscarion» يدل على مكان صنع الفُسقة وبيعها والفُسقة شراب فيه ماء وخلّ، كان يشربه الجنود الرومانيون . ثم المكان المسمّى « المقصلّاط» كانت تلتقي فيه ، دون شك ، الاسواق المسقوفة « macella ». وكان امام مدخلها قوسٌ عالٍ يرفع تمثال رجل واقف يمدّ يده.

وان اكثر هذه البنايات التجميلية في المدينـة بُنيت على عهد سبتيموس ساويروس وقاراقلّا ، اي في اواخر القرن الثاني واوائل الثالث للمسيح. وواضح

ان اهميتها لا تقف عند مظهر الجبال فيها ، بـــل تتجاوز الى انها تظهر متأثرة بتكوين المدينة نفسها . فان نموّ المدينة في العصور الوسطى تطوّر وفقاً لميزات دمشق الرومانية ، « دمشق الجميلة المقدسة » ، سواء أكان هذا التطوّر متابعاً المبادئ الغربية أم مقاوماً لها .

الامويون

دخل العرب دمشق في ايلول سنة ٦٣٥

ولم يكونوا يجهلون المدينة قبل ذاك. وان تكن بُصرى محطّ رحالهم في اغلب الاحيان يأتون اليها بحاصلات الهند واصباغ بلادهم المعطرة ، تابعين الطريق العظمى الرومانية على حدود جزيرتهم ، فقد وصل غير واحد منهم الى دمشق ، في القرون السابقة وعاد منها يحدّث ، ويردّد حديثه الشعراء ، بما تمثل تلك الجنائن المتدفّقة انهارها ، الوافرة ظلالها ، المغرّدة طيورها ، تلك البقعة الفسيحة من الخضرة ، الحافلة بعدد من الشجر يربو على اشجار بلاد العرب جمعاء ، الماثلة لذةً فائقةً بل صورة فردوسية لاولئك البدو ارباب القوافل وقد اضنكتهم اسابيع السير في البيداء المقفرة.

ولم يكن تأثير دمشق على الفاتحين المسلمين باقلّ من هذا التأثير . واذا دمشق في نظرهم شامة الارض ، وجنة الدنيا ، واحدى عجائب العالم ، يرون فيها احد المواقع التي شرّفها الانبياء ، — وايّ موقع يشرّفون ان لم يشرّفوا جنة كدمشق ؟ — ففيها قتل قايين هابيل ، وفيها وُلد ابرهيم ، وبها لاذ عيسى وامه لاجئَين « إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ » ، وفيها ينزل عيسى في منتهى الازمان ليقاتل المسيح الدجّال . وغير خافٍ ان هذه الصور المجازية ، والعمل على تعيين الاماكن التقوية ، تعبّر كلها عن اعجاب شعب كان محصوراً منذ القدم بين آفاق الحجاز القاحلة الجرداء . بيد ان دمشق لم تمسك العرب طويــلاً ، والبدو بحاجةٍ ، في رعاية ابلهم ، الى سهول فسيحة لا يجدونها في واحة دمشق . فغدا مجتمعهم الضخم في سورية الوسطى على ٨٠ كيلومتراً من جنوبي دمشق ، في حاضر الجابية من ارض حوران . وهناك اخذ بعض الافراد ، بل اقسام من القبائل ، في التحضّر شيئاً فشيئاً ، ساكنين المضارب او الاكواخ الحقيرة من

الطين والقصب.

وهكذا ظلّت دمشق في المحل الثاني من الامبراطورية الجديـدة ، حتى بويع بالخلافة لمعاوية ، والي سورية . فاختارها عاصمةً له سنة ٦٥٦ . وقد جاء هذا الاختيار دليلًا ساطعاً على ما كانت تهمّ به الدولة الجديـدة . ذلك ان البـدو كانوا لا يزالون يؤلفون مادّة الحروب في سبيـل الاسلام . ولكن الامبراطورية كانت قد تجاوزت حدود جزيرة العرب ، فاتّسعت على بـلاد عريقة في التمدّن ، واخذت تستخرج منها مجموع مواردها المالية.

ثم ان امراء الدولة الجديدة كانوا لا يزالون متعلّقين بالعروبة يتدخّلون ، عن رضى ، في مشاحنات القبائل ؛ ويتسلّلون ، كل سنة ، الى البوادي الفسيحة فيعيشون عيشة امراء البدو في المضارب ، مدة الاسابيع الربيعية. على انهم كانوا يؤخذون ، الى ذلك ، بحياة التمدّن ، فينعمون بالحمّامات ، والموسيقى ، ومجالس الانس في الديورة ، نعيمَهم بمدائح شعراء البدو وبمظاهر الطراد في القفار. وليست مدينة اجدر من دمشق بان تسهّل عليهم حكم المناطق المتحضرة ، والمحافظة على الصلة بالبدو ، فتجمع لهم بين مرافق المدنية ، وملذّات العاطفة والرياضة في الحياة البدوية.

ولم يكن الحكم العربي ، في اول عهده ، ليؤثّر الاثر العميق في أميزات المدينة. فان سكانها من المسلمين كانوا اقلية ضئيلة بالنسبة الى سائر السكان. ولم يبدُ من مظاهر الحكم الجديـد الا بناءان ضروريان هما الجامع ، ودار الخلافة . اما الدار فلم تكن الا مسكن الخليفة الخاصّ . واما الجامع فله اهمية خاصّة في حياة المسلمين . هو المعبد يجب على كل مسلم ان يأتي فيؤدي فيه صلاة الجمعة كل اسبوع. وهو ، فوق ذلك ، مركز الحياة العامة. فيه تحتشد الجماعة فتبايع الخليفة بيعةً احتفالية ؛ ومن على منبره يلقي الخليفة خطبه السياسية ؛ وفيه يستقبل وفود القبائل ؛ وفيه يُقام نصاب العدل ؛ ويُحفظ بيت المال .

ولما كان هذان الصرحان متصلين صلةً وثيقةً احدهما بالآخر ، وذلك ان غايتيهما متعلقتان بالخليفة : الاولى بحياته الخاصّة والثانية بحياته العامة ، شُيّدا جنباً الى جنب في مكان كان من الامكنة القليلة المتروكة خالية في المدينة ، وهو

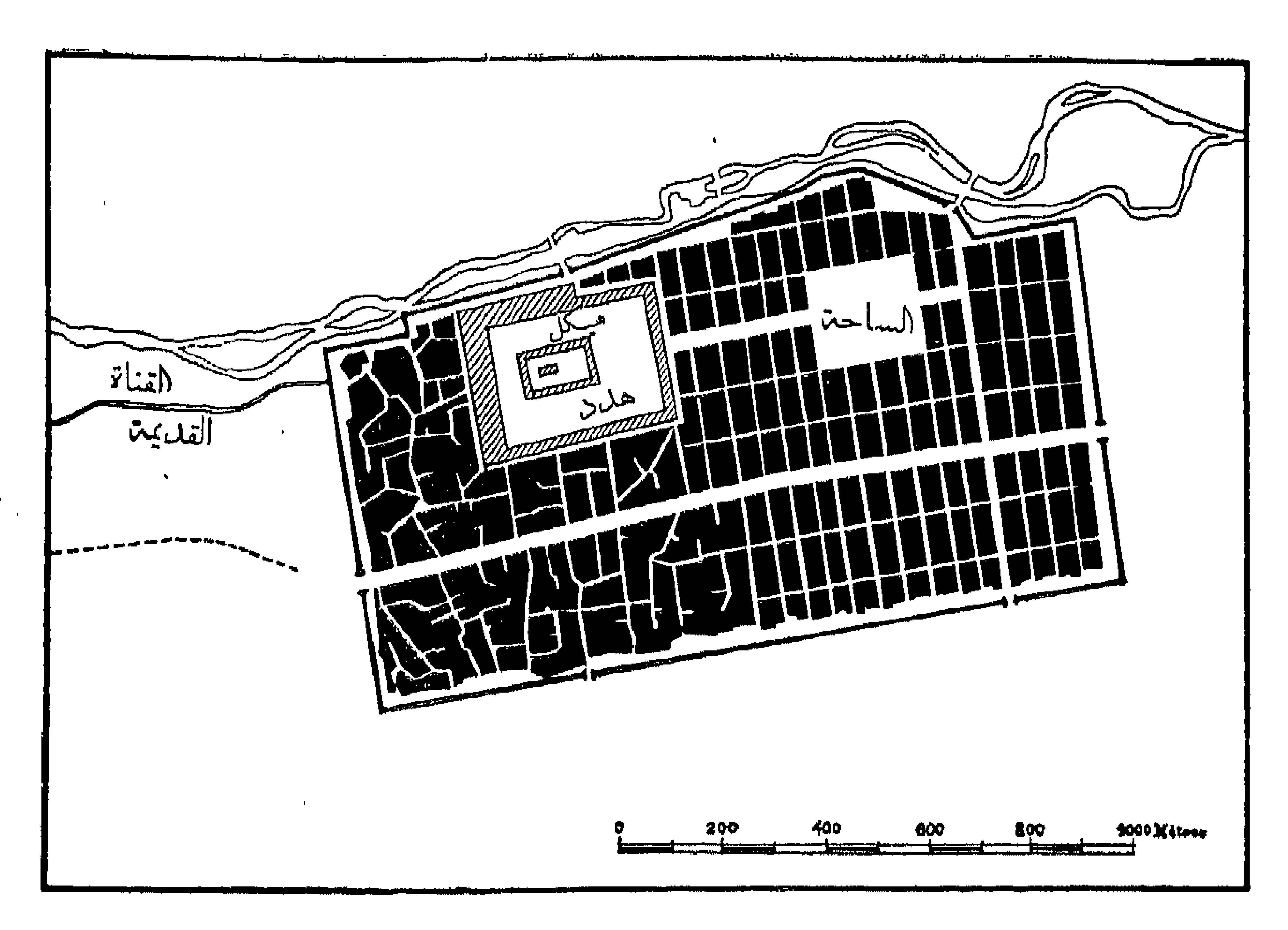
مكان حرم الهيكل القديم ، وقد غدا لا غاية له . فبُني الجامع مستندًا الى الجدار الجنوبي من السور الثاني (péribole) (وضمن هذا السور كانت تقوم، اذ ذاك ، كنيسة القديس يوحنا المعمدان) . اما القصر فبُني الى جنوبي الجامع لا يفصله عنه الا جدار جُعل فيه باب لمرور الخليفة من منزله الخاص الى «المقصورة» الجامع . وامام القصر اسطبلات أُطلق عليها اسم «دار الخيل».

وعلى مقربة منها اجتمعت منازل امراء الدولة الاموية. وقد قامت كل هذه البنايات ، كما يؤخذ من النصوص التاريخية ، على الاسلوب التقليدي في البناء المحلّي فاستُخدم فيها اللبن المجفّف والخشب . على ان اسم «الخضراء» المطلق على القصر قد يفرض بعض التزويق في تزيين داخله . ولهذا لم تكن اهمية هذه البنايات في قيمتها الهندسية بل في كونها جُمعت ملتصقةً بعضها ببعض في قلب مدينة اكثريتها الساحقة من النصارى واليهود فالّفت بلدةً صغيرةً اسلامية كانت مركز سادة الحكم فغدت عنصرًا مهمًّا في تطوُّر دمشق .

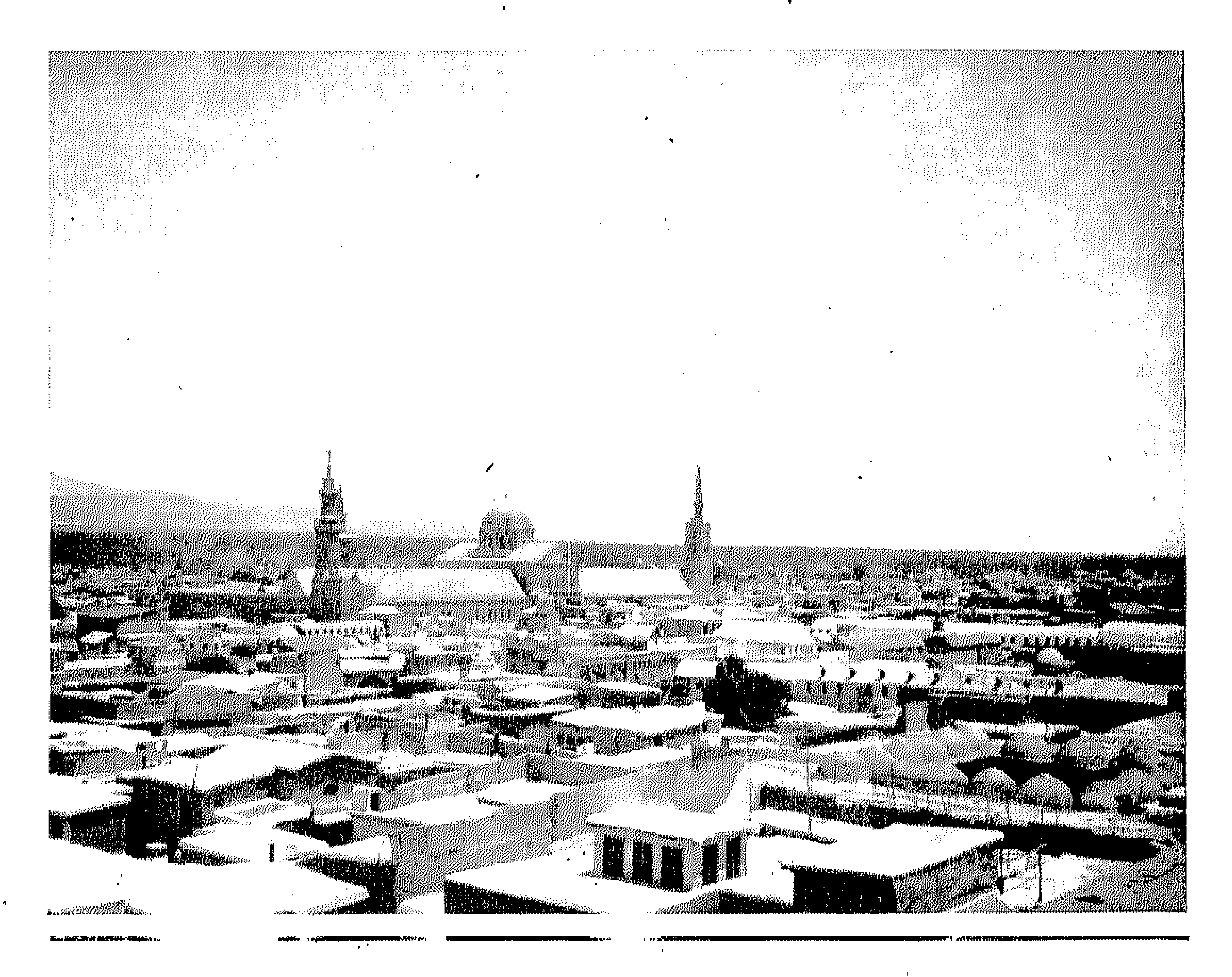
ولم يقلّ اهمية عما تقدّم ما قام به ابن معاوية ، في سفح الجبل ، من حفر قناةٍ جديدة لا يزال اسمها حتى اليوم «نهر يزيد» . فانها فوق ما دفعت اليه من اعادة النظر في توزيع «حقوق الماء» في الواحة كلها ، عاملةً على توسيع المنطقة المزروعة باحياء اراضي حَرستا والقابون ، عملت كذلك على خلق قُرى ومزارع في تلك الضاحية كان من نصيبها ان تبلغ في القرون التالية ازدهارًا ما كان ليتوقّع اذ ذاك .

وكان لا بدّ يوماً من ان يضيق الجامع الذي بناه الفاتحون . فان عدد المسلمين على ازدياد متواصل . وها ان الذمّيين ينتقلون الى الاسلام واحدًا واحدًا ، تارةً عن ايمان ، وطورًا عن طمع ، وحيناً — وهذه حالة الاكثرية — عن تخلص من دفع الجزية الفادحة ، وعن هرب من تلك الحالة المنحطّة التي وضعهم فيها الاسلام . فوجب اذًا ان يكون لهذه الجماعة الاسلامية المتزايدة العدد جامع اوسع من الاول ، وافخم ، فيكون منظره اقلّ ضعةً بالنسبة لتلك الكنائس الرائعة التي اقامها نصارى الشام.

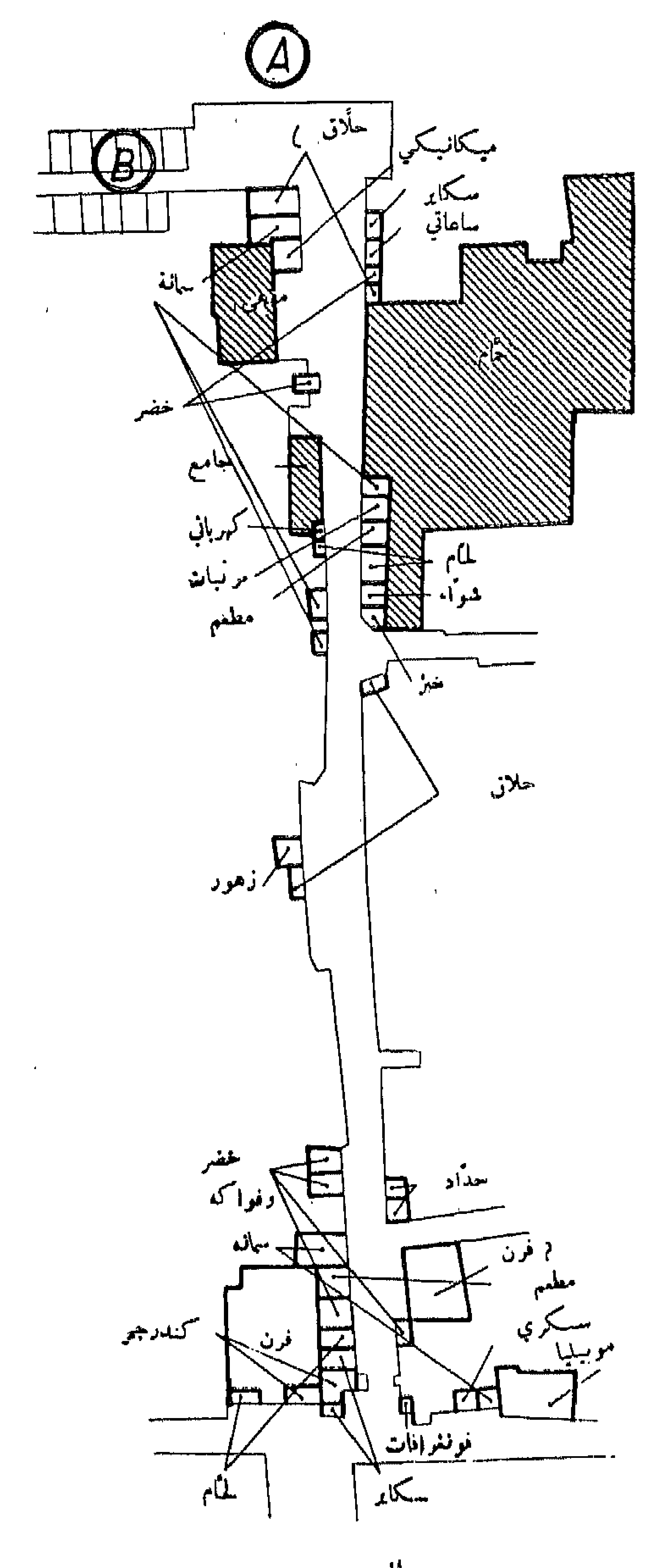
ولما عزم الوليد، وهو من كبار بنائي الدولة ، على القيام بهذا العمل ، اذا



الرسم ١٠ — دمشق في العهد الروماني



الرسم ١١ — من مناظر الجامع الاموي



الرسم ١٢

من اسواق الاحياء: سويقة جيرون في حالتها الحاضرة

A – الجامع الاموي

B – احدى الاسواق

به يصطدم بشكل صعب الحلّ : في تلك المدينة الغاصة بالسكان حتى تكاد تتجاوز اسوارها ، لم يبقَ ارض خالية من البناء الا الساحة القديمة . وكانت السوق الاسبوعية لا تزال تُقام فيها كل احد . اما حرم الهيكل فكانت بيوت المسلمين الجديدة قد اكتسحته شيئاً فشيئاً ، مدفوعين بقرب الجامع وبالرغبة في الحياة مع ابناء دينهم . ثم ان تجمّعهم في هذا القسم من المدينة كان حائلًا دون التفكير بنقل الجامع . فلم يكن للوليد ، والحالة هذه ، الا حلّ وحيد لذاك المشكل ، وهو ما قام به ، عابثاً بالعهود السابقة ، منتزعاً من النصارى كنيسة القديس يوحنا المعمدان . على انه اعاد اليهم ، مقابل ذلك ، عدة معابد كانت قد أُخذت منهم سابقاً . وفي ذاك الموقع الملاصق للجامع الاول ، بدأ الوليد ، منذ السنة ٧٠٥ ، بناء ذاك المعبد الذي شاءه لائقاً بعظمة سلطانه ، والذي سيبقى شاهداً على دولته فيدعى بحق « جامع بني امية » . (الرسم ١١)

لقد بدأ العمال بهدم كل البنايات داخل السور الثاني ، فلم يبقوا الا على حائط السور نفسه ، وعلى ابراجه الاربعة في الزوايا ، فكان لهم فسحة خالية تزيد مساحتها على الهكتار . عند ذاك اتى دور المهندسين ، وهم دون شك من نصارى الشام ، بل قد يكونون من نصارى انطاكية . وقد فرض عليهم ان يعملوا في هذا الإطار الجاهز ، فنجحوا فيه بمهارة نادرة . افردوا القسم الشمالي من الارض لساحة يحيط بها رواق مسقوف تنفذ فيه الابواب ، ويحتوي على قبّة بيت المال . اما في الناحية الجنوبية فقد اقاموا على طول حائط السور الاصلي ردهة واسعة للاجتماع ، تزيد مساحتها عن ٥٢٠٠ متر مربع ، متجهة اتجاه صفوف المسلمين اثناء الصلاة . وقد قام سقف هذه القاعة على جملون استند الى صفّين من الاعمدة . ولا يخفى ان في هذا التصميم اقل ما يمكن من العوائق . وارتفع سوقها الاوسط ، مكلّلًا بقبة ، مشيراً الى اهمّ مكان في الجامع : القِبلة ، او وجهة مكة ، ومقام الخليفة ، وهو يصل اليه من باب جديد فُتح في الحائط الجنوبي ، وعُرف باسم « باب الزيادة » . وبُني ، امام هذا الباب ، بين القصر والجامع ، ممرّ مسقوف يماثل تلك الممرّات التي أُقيمت في العهد البيزنطي مادةً ، حتى ابواب الكنيسة ، الشوارع

القديمة المحفوفة بالاروقة عن الجانبين . ولم يخلُ الحائط الشمالي من تجديد ، فقد رُفعت في وسطه منارة عالية مربّعة دلّت ، الى ابعد ما يمكن ، على آخر تجديد في هيكل دمشق القديم .

وقد أُقيم بناء كل هذه التجديدات وفقاً للتقاليد السورية . على انه اتبع في زخرفها اسلوب القسطنطينية . فغطّيت الجدران كلّها بالتلبيسات النفيسة ، منها تلك الصفائح من الرخام المتعدّد الالوان التي ارتفعت حتى مخارج الاقواس ، وفوقها قطع الفسيفساء الرائعة من معجون الزجاج ممثلة اشجارًا ومنازل تبرز بفواقع الوانها على الصفيحة المذهبة .

ولا يخفى ان اتمام هذا المشروع العظيم يتطلّب ، مدة السنوات العشر ، مبالغ هائلة ، وعددًا كبيرًا من العملة . ولما كان المشروع ذا منفعة عامة ، وهو من بنايات الدولة ، جُلب له العمَلة مسخَّرين من جميع ولايات الامبراطورية . على ان النتيجة لم تكن الا موافقة لتلك الجهود . فان الوليد زيّن العاصمة السورية بجامع كان اول بناء جدير بلقب الفخامة والروعة في ارض الاسلام ، بل كان ، فوق ذلك ، احدى روائع الفنّ البنائي في جميع الازمنة والامكنة . فغدا موضع اعجاب الشرق كلّه مدّة القرون العديدة ، وذلك بسعة اقطاره ، وعظمة ترتيبه ، وروعة زخارفه ، وغنى موادّه التي يزيد في اظهار قيمتها فقر بيوت الطين واللبِن المحيطة به . بل غدا ، في نظر الشرق ، رمز سموّ الاسلام السياسي ، وتأثيره الادبي . حتى ان اعدى اعداء الامويين لا يتمالكون اظهار اعجابهم واحترامهم امام هذا الاثر .

وكان لقرار الوليد ان يبدأ طورًا جديدًا في تاريخ دمشق . فقد ظلّت المدينة القديمة ، على رغم الزلازل والاكتساحات ، قائمة بسورها ، وساحتها ، وتربيع شوارعها ، وجادّتها ذات الاعمدة (وهي التي اصبحت ، في ما بعد ، « السوق الكبرى ») . على ان مدنيةً جديدة ، اسلاميةً في جوهرها ، اخذت تنمو فيها شيئاً فشيئاً . فاصبحت الجماعة الاسلامية تجد في جامع الوليد محور حياتها الثقافية ، تلك الحياة التي كانت تزداد سعةً وتأثيرًا جذّاباً كلما ازدادت عقيدة الاسلام ومدنيّته ثباتاً وعمقاً .

دمشق في العصور الوسطى

تكوينها

على اثر سقوط الامويين ، تضافرت الحوادث التاريخية فحوّرت مجرى تطوّر المدنية ، وعملت على الاسراع فيه .

كانت سورية هدف استبداد العبّاسيين،فارهقوها ارهاقاً منظّماً . واتى بعدهم عصر فوضى توالت فيه الحروب وغزوات البدو ، فاخربت البلاد حتى العهد الفاطمي . بيد ان السيادة الفاطمية كانت ابعد من ان تُقرّ الطمأنينة ، فازدادت الحالة حرجاً ولا سيا في دمشق ، وقد نُكبت ، فوق المفاسد الحكومية ، بتلك الاختلافات المتتابعة التي كان يثيرها في جمهور السكان توحّش العسكر البربري.ولم ينتهِ هذا العصر الحافل بالاضطرابات والاغتصابات، وهو من ادكن العصور التي عرفتها سورية في تاريخها ، الا بظهور الاتراك السلجوقيين . .

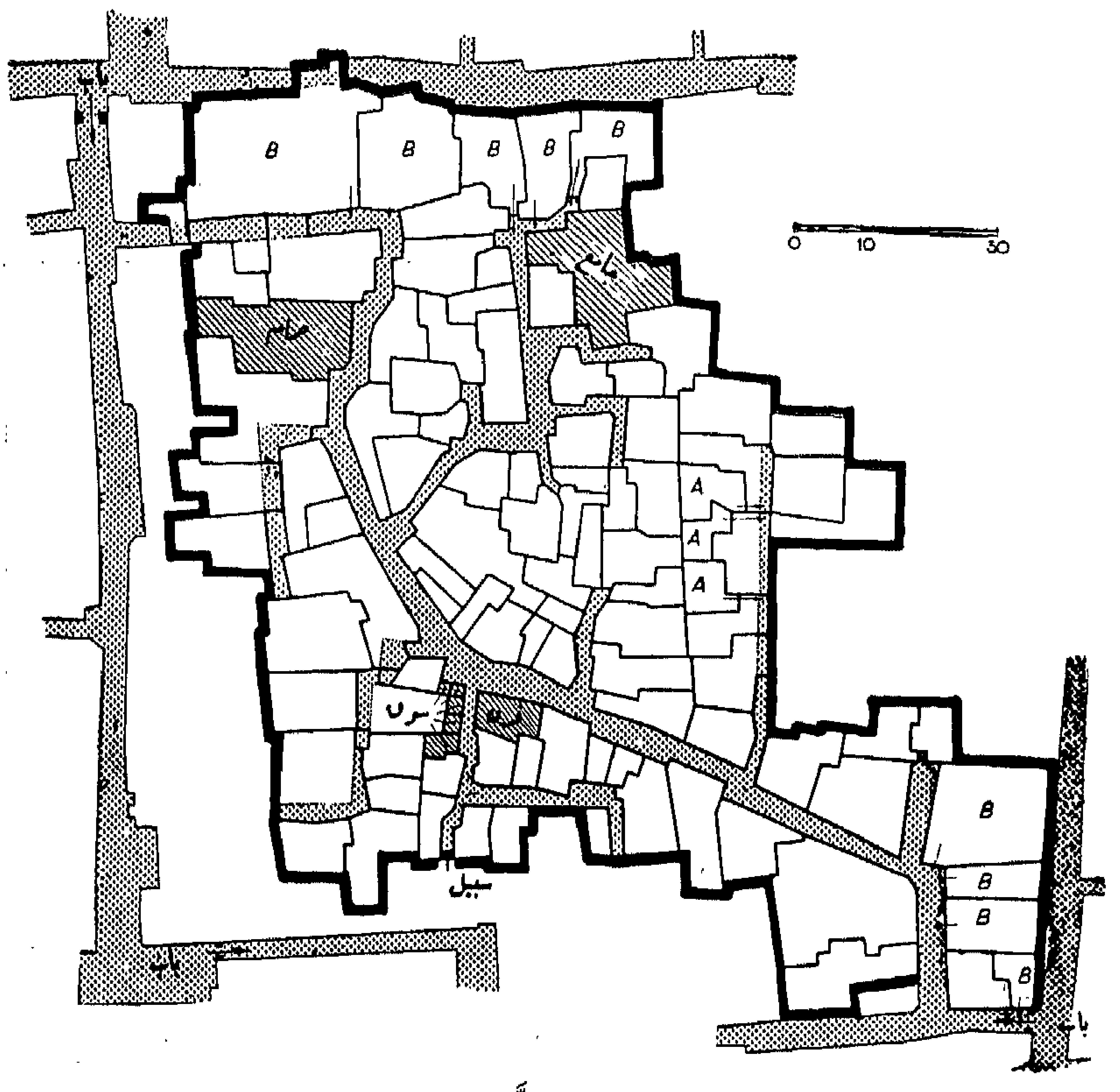
ولا نخطئ اذا قلنا ان العامل الاساسي في التطور المدني ، مدة هذه القرون الفوضوية الثلاثة ، كان اضطراب الأمن ، على مختلف مظاهره.ونفهم باضطراب الأمن لا أزمة كالتي تنشأ عن حالة الحرب ، بل اضطراباً داخلياً دائماً ، مزمناً في بعض مظاهره ، ناشئاً ، في اكثريته ، عن تأليف الحكومة نفسها . .

ولم يكن ارباب هذه الحكومة — ولاةً وقضاةً ومحتسبين — من الموظفين العاديين ، ولا من ذوي الاقطاع ، اذا فهمنا باللفظة معناها الغربي . انما كانوا اشبه بضباط ملكيين لا يقومون باعمالهم الا بناء على تفويض من صاحب الامر. ولما كان هذا التفويض قابلًا للالغاء في كل آن ، اصبح ذاك الاضطراب سائدًا على الحكام ، مسيطرًا على جميع اعمالهم . فهم لا يثقون بالمستقبل بل لا يعرفون

ما يجبئ لهم . واذاً فهمهم الوحيد تقريباً ان يرهقوا المحكومين فينالوا منهم اكثر ما يمكن من المال في اقل ما يمكن من الوقت . ذلك انهم ، على الغالب ، مدينون بارتقائهم لعطف احد كبار الرجال ، من اولئك الذين قد ينالهم غضب السلطان وجفاؤه بين الآونة والاخرى . او انهم اشتروا مركزهم بالمال ، فعليهم السعي الحثيث في استرجاع ما انفقوا ، وهم واثقون بالمناعة لخلوّ الادارة من ايّ دائرة للمراقبة .

وكان من نتائج هذا الاضطراب في الامن ان طبقات الشعب الوضيعة اخذت تعمل على المقاومة . ذلك انه لم يكن لها ضمانة الا الحماية الوهمية التي توليها ايّاها الشريعة القرآنية ، ولا مرجع شرعي تجاه الظلامات الا الاستئناف لدى الخليفة البعيد حتى لا يمكن ان يوصل اليه بسهولة . واذاً فالسوقة عرضة لاستبداد الحاكم ايّاً كان . فكان من الطبيعي ان تلجأ الى طريقة الدفاع الوحيدة وهي التعاون . وقد بدا هذا في اجتماع تلك الطبقات وفقاً لنزعاتها الدينية ، والجنسية ، والصناعية خاصة ، حتى امكن افرادها ان يدافعوا بالقوّة ، آن اللزوم ، عن حياتهم واموالهم . بل انهم بلغوا ما فوق ذلك . كانوا يشترون بمالهم الشفاعات ورضى الحكام ، فينالون شيئاً من الراحة وحسن الحال . وقد ظهر خاصة روح المشاركة هذه في العودة الى الحياة الحِرفية او اتحاد ارباب الحِرَف ، وهي ، دون شك ، من بقايا التنظيم الروماني والبيزنطي . وهكذا اصبح كل شخص ، حتى المكدون والبغايا ، ينتمي الى عصبة او نقابة من ارباب مهنته لها انظمة تحمي اعضاءها من المزاحمة غير المشروعة ، وتعين المصابين منهم والعاطلين . ويسهر عليها رئيس يكون وسيطاً بين ارباب الحرفة والحكومة .

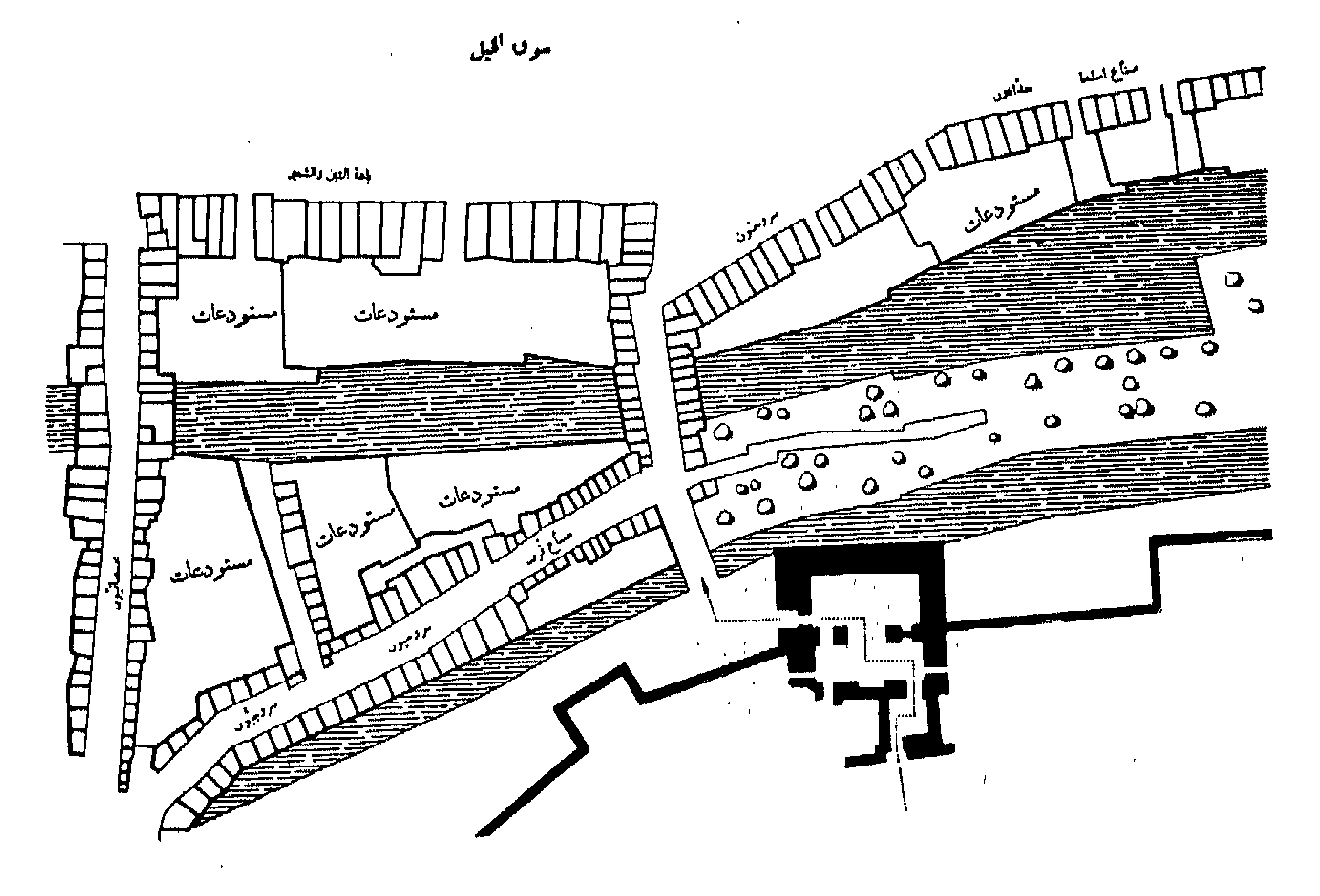
على ان هذه الحياة المشتركة ، التي دفعت اليها الحاجة الى التعاون والتعاضد ، سرعان ما ادخلت التفكك في الوسط الحضري . واذا بالمدينة تظهر منذئذٍ بمظهر مجموعة من « الحارات » المستقلة كل منها بحياتها الخاصة ، منفصلة عن حياة جاراتها . وكأن كلّاً من هذه الحارات مدينة مصغرة بمسجدها ، وطريقة توزيع المياه فيها ، وحمامها ، وسويقتها محتويةً على الحبوب وسائر الحاجيات (الرسمان ١٢ و١٣) ولها « شيخها » المسؤول ، وشرطتها المؤلفة من افراد العسس الذين يسهرون



الرسم ١٣ – مخطَّط احدى الحارات

A : بيوت لا اتصال لها بالجادة العامة

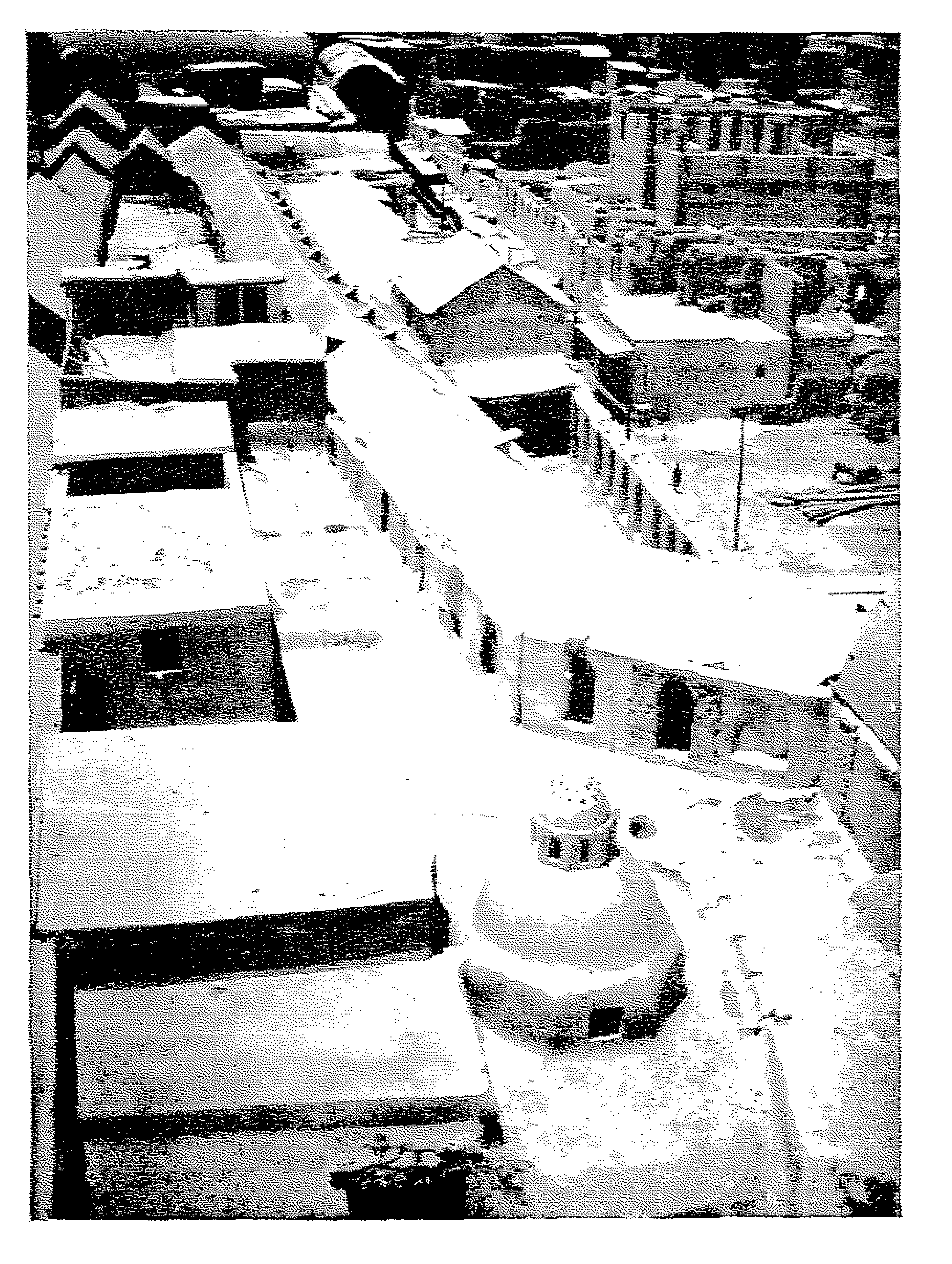
B : بيوت لها واجهة على الجادة العامة ولكن مداخلها في بعض الدخلات



الرسم ١٩ – تكوّن الاسواق « تحت القلعة »



الرسم ١٤ – احد ابواب الحارات



الرسم ١٥ – سقوف الاسواق

الليل فيعرفون المارّة ؛ بل لهـا حصونها ، وهي الابواب ؛ وجيشها المؤلف من « الاحداث » ، وهم جنود الحرف . اما سكان « الحارة » فيجتمعون ، على الغالب ، من ارباب المنطقة الواحدة كما نرى في « حارة الحوارنة » مثلاً ، او من ذوي الدين الواحد ، او من ابناء القبيلة او الاسرة الواحدة. ولا يندر ان يكون سكان « الحارة » معادين بل محاربين سكان « الحارة » المجاورة .

وتختلف « الحـارات » الاختلاف كله ، من حيث التخطيط ، عن احياء المدينة اليونانية-الرومانيـة . فان المواصلات والانتقالات بين المساكن في المدينة القديمة كانت تجري في الشوارع نفسها . اما في المدينة الحالية فلم يبقَ الا عدد محدود من الشوارع الكبرى للمواصلات الحرّة. ولكنها لا تنفذ الى المساكن. بل يتفرّع منها «دروب» خاصة، عليها ابواب تُقفل كل مساء عند غروب الشمس (الرسم ١٤) ومن هذه الدروب تتفرّع « ازقّة »و« دَخلات» تصل الى المساكن الخاصة ، وعليها كذلك ابواب يمكن اقفالها. وهكذا فلا يظهر من المنزل الى جهة الشارع الا مؤخرته الخالية من المنافذ. فلا يمكن الوصول اليه الا بعد ان يُقطع باب الحارة ، فباب الزقاق ، فباب المنزل نفسه . فيجد المرء شيئاً من الامان والطمأنينة في بيته بفضل هذه العقبات المتتابعة ، وبفضل ما اشرنا اليه من روح التعاون والتعاضد.

وهكذا فاننا ، اذا لم نتنبه الا لهذه الطريقة في السكنى ، تظهر لنا المدينة مجموعة من« الحارات » خالية من كل صلة تربطها. بيد ان هناك بعض المؤسسات المشتركة تعمل على الوحدة بين احيائها ، وهي :

١ً — السور المحصّن يُعيّن حدود المدينة، ويضمن الامان لسكانها بصرف النظر عن اصلهم ، وديانتهم ، ومركزهم من المجتمع . ولهذا نرى « الاحداث » اي جنود الحرف يسيرون بقيادة رئيس التجار ، فيقومون بحراسته ، في حالات الخطر ، الى جنب العسكر النظامي.

٢ً — الجامع الاكبر . وهو لا يزال مركز الحياة العامة ، وان تكن اهميته قلّت عمّـا كانت عليه عهدَ الامويين ، لان مركز السلطان تحوّل عن دمشق . ففيه تُعلن الانباء التي تهمّ جمهور السكان كتعيين الولاة ، والغـلاء

الضرائب ، وما شاكل . وفيه يظهر الشعب تعلقه بالخليفة وامانته لسلطته ، اذ يأتي كل جمعة فيحتفل بالصلاة ذاكرًا اسمه ، داعياً له .

٣ — الاسواق . وهي اهم الاسباب في وجود ذاك المجتمع ، بل القسم الاساسي في « المدينــة » ، مقابلةً لحارات السكن التي تؤلف « البلد » . والاسواق آهلة تماماً بحوانيت التجار والصنّاع تجتمع فيها وحدها . واذًا فعلى السكان ان يطلبوا في الاسواق ، لا في غيرهــا ، ما يحتاجون اليه من بضائع وسلع . اما تخطيط هذه الاسواق فيمثّل مجموعة من الشوارع المتوازية ، تُقفل بابواب في مداخلها ، ويختصّ كل منها بارباب مهنةٍ واحدة . وعن هذه الشوارع تتفرّع اسواق مغطّاة مسقوفة ؛ وهي«قيساريات» تقوم مقام المثابات (البورصات)، كقيسارية الحرير ، وقيسارية الصيارفة وغيرهما؛ وخانات او فنادق تشتغل بتجارة الاستيراد والاصدار ، متصلة اتصالًا مباشرًا بتجارة السوق.

وكان من الطبيعي ان يقوم مجموع « المدينة » هذه في المحل الذي كان يقوم فيه المركز التجاري في العصور القديمة ، فتشعّبت الاسواق مكان الجادّة الرومانية الكبرى المحفوفة بالاعمدة من عن الجانبين . على ان منظرها كان ابعد من ان يُشبه ذاك الترتيب القديم بما فيه من حوانيت واسعة مفتوحــة بتخطيط منظّم تحت القناطر الضخمة ، تتسع وسطها الطريق الفسيحة الخاصّة بمرور الحيوانات . لم يبقَ من كل ذلك الا اسواق غير مرصوفــة ، مضطربة الاستقامة ، لا يتجاوز عرضها من المتر الى الثلاثة الامتار ، تغطيها الحصر او رفوف الخشب،او سقوف التراب (الرسم ١٠)، وتنفتح ، من على جانبيها ،حوانيت حقيرة لا يندر ان نرى بينها ما لا يتجاوز حجمه حجم الخزانة . وهي تُستخدم للمبادلات واعمال البيع والشراء ، ولا يندر ان تُستخدم محلات للعمل . وهناك الازدحام العجيب من مشترين ، ومارّين ، وباعة نقّالين ، ودلّالين ، وسائلين ، وحمّالين ، ودوابّ . حتى كأن الجادّة القديمة تصغّرت وضُغط عليها من الجانبين ، بعد ان رفع منها الرصيف والرواق ذو الاعمدة.

اما طريقة هذا التحوّل فتظهر واضحةً اذا ما قابلنا بــين موقع الاسواق بالنسبة الى الجادّة ذات الاعمدة ، وحالــة شوارع العصور الوسطى ، وشوارع

العهد القديم . وقد كانت هذه الاخيرة تمتدّ ، دون انقطاع ، على خطٍّ مضبوط الاستقامة ، وبعرضٍ لا يتغيّر . اما شوارع العصور الوسطى فقد كانت تنتهي بزوايا لا منافذ لها . وسواء أنظرنا الى مجمل تصميمها ام الى خطوطها المفردة ، فاننا نرى ان الخط المستقيم كان من النادر فيها ، وكذلك القول عن عرضها المختلف باختلاف الممرّات حتى انها كانت تظهر احياناً من الضيق بحيث لا تكاد تتّسع لمرور رجل واحد . على ان هذا لا ينفي النسبة المكانية بين هذه الشوارع والشوارع القديمة . وقد رأينا الكثير منها يتابع نسبيًّا تخطيط الشوارع اليونانية واتجاهها . واذًا فيحق لنا القول بان سلسلة متتابعة من التعدّي على الطريق العامّ فككت نظام ذاك الترتيب القديم وافسدته ، على طريقة بطيئة ولكنها متواصلة .

وكان مما سهّل حصول تلك التعدّيات ان الشريعة الاسلامية لا تعرف احكاماً خاصّة بنظام المدن ، ولا بالمؤسسات البلدية . وهي لا ترى في المجتمع المدني ما كانت تراه اوربة في العصر نفسه ، اي وحدة اقطاعية متوارثة او جسماً ذا ميزات خاصّة . انما هو جزء متمّم غير منفصل من الجامعة الاسلامية الكبرى ، ولا صلاحية لاحد بان يسوسه ويسهر على مقدّراته الخاصة عن معرفة واستقلال . فان سلطة المحتسب ، وهي تتعلق قبل كل شيء بالتحريمات ، لا توليه حقّ الاقدام على اي عمل كان . وكذلك القول عن الحاكم وواجبه الاساسي يقوم بالدفاع عن المنطقة والعمل على جباية الضرائب ، فلا يرى المدينة الا مجموعة من المكلّفين ، او عنصرًا يؤثر بحالة الامن العامّ ايجابيًّا او سلبيًّا . وعلاوة على ذلك فان ما تتصف به ولاية هذين الرجلين من الاضطراب والقلق يحول بينهما وبين التعلّق الفتال بمقام لا يريانه الا موقّتاً ، فلا يسيران ، على الغالب ، الا بدوافع الرشوى والزلفى لمن كان اكبر منهما .

ومن هذا حصل امر مثقل بالنتائج ، وهو ان المدينة اختلفت عما كانت عليه ، فخرجت عن كونها شخصيّةً مستقلة بل كائناً مركباً نابضاً بالحياة . واصبحت مجموعة من الافراد ذوي المنافع المتعاكسة ، ينفرد كل منهم بمصلحته عاملًا لها في منطقته الخاصة ، منصرفاً كل الانصراف عن جاره ، مستغلًّا ، على

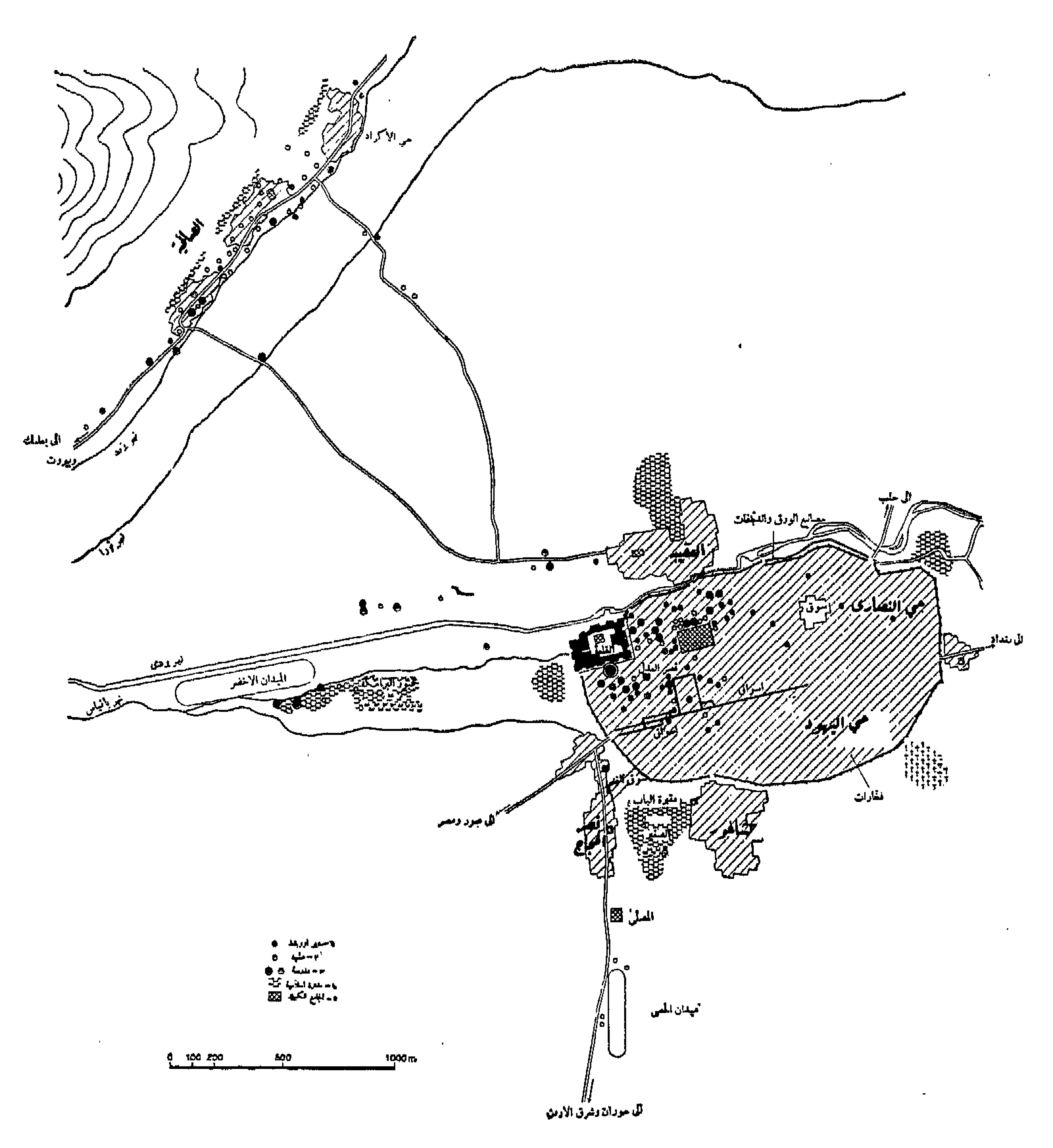
قـدر امكانه ، جميع الحوادث والاحوال في سبيل غايتـه الشخصية . اما الجماعات المنظّمة ، وهي الحرف والحارات ، فلم تخرج عن هذا الانتقال حتى امكننا الحكم بان تطوُّر المدينة اصبح نتيجة لمجموعة من المساعي الفردية ، ليس غير . على انه من الحق ان نشير الى اعمال الامراء وعظماء المدينة ، وما يجب ان نعلّق عليها من اهمية لما كان لها من التأثير في عامـة الشعب ، وهي اكثرية السكان عددًا ، واقواهم حركةً .

وقد احتفظت المدينة بهذه الصفات ، لا تكاد تغـيّر فيها شيئاً ، طول القرون الوسطى (بالمعنى الغربي) بل طول الحقبـة العصرية . فلم تنزع الى تحويرها الا بعد ان دخلتها المؤثرات الاوربية في منتصف القرن التاسع عشر .

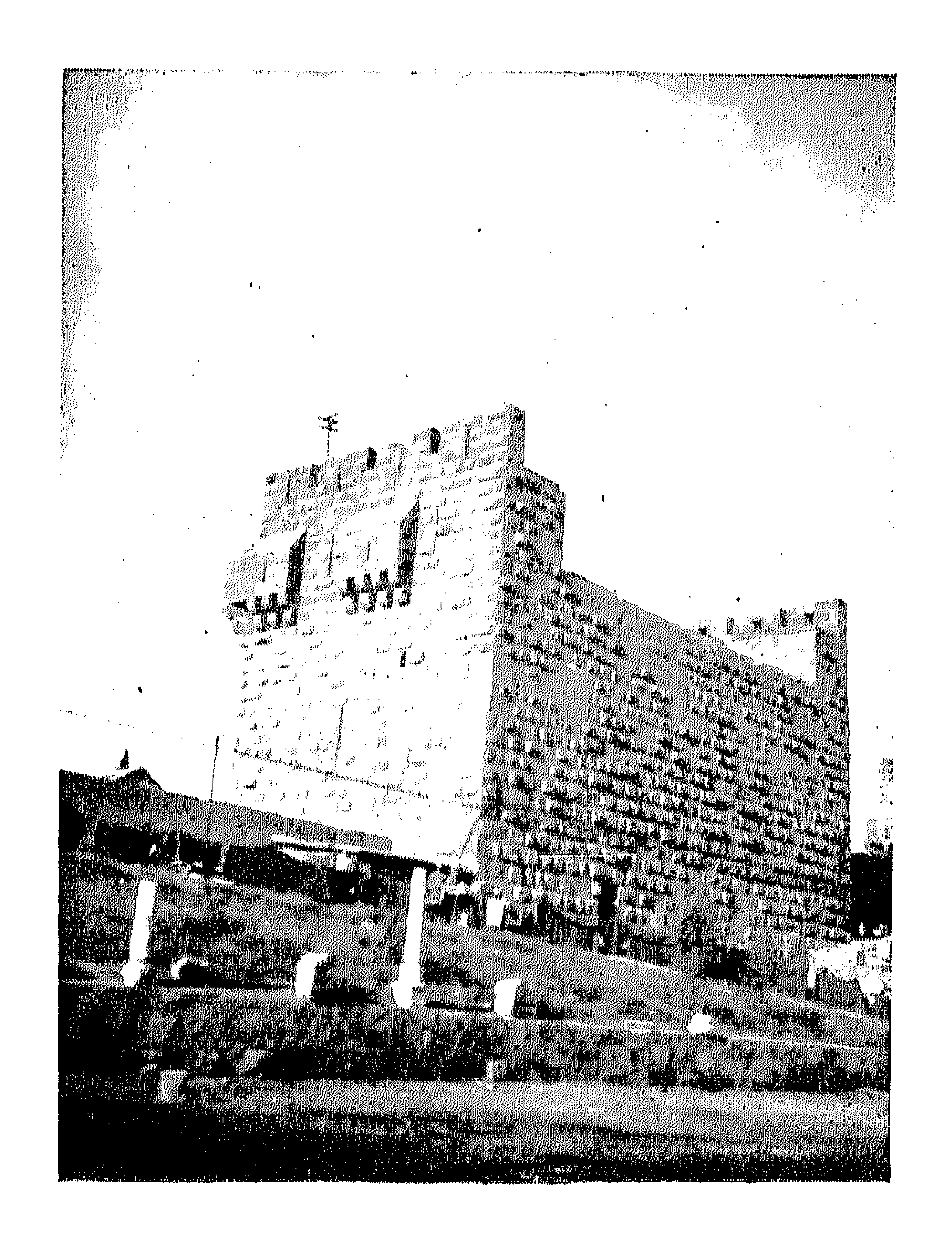
تطوّر المدينة

تقدَّم لنا القول بان ظهور الدولة العباسية كان بدء عهد انحطاط في دمشق . وذلك ان ذكر الامويين كان ثقيل الوطأة على الخلافة الجديـدة فعملت على ملاشاته بطريقة منظمة . فخرّب العباسيون القصور ، وانتهكوا حرمة قبور الخلفاء ، واذروا رمادهم في مهبّ الرياح . وان يكن الجامع الاموي سلم من تلك التخريبات فالفضل لما كان يحيطه من احترام . على ان رجال بني العباس لم يتراجعوا عن تكسير الرقم المشيرة الى مؤسسه ، ولا عفّوا عن ارسال كثير من الزخارف والقطع الفنّية الى العراق . حتى انتهوا بان هدموا اسوار المدينة رغبةً منهم في ان يحرموا السكان ما يتحصنون به اذا ثاروا عليهم . وليس من عجب بعد هذا ان تنحطّ دمشق المقهورة ، المغضوب عليهـا ، الى مصافّ المدن الثنوية ، فتعمل فيها عناصر الانحلال المذكورة سابقاً ، وتتابع عملها على تفكيك عرى ذلك النظام القديم .

وقد اسرع فيها الانحلال ، على عهد السيادة الفاطمية ، بسبب الحرائق التي كانت تشبّ فجـأةً وعن غير قصد اثناء المشاغبات والثورات . ولا يخفى ان شعلة النار ، ايًّا كانت ، تتسارع السنتها ، ويمتدّ اذاها ، حتى تُصبح حالًا من الكوارث الهائلة في هذا المجتمع المبني كلّه بالموادّ القابلة الاحتراق . ثم يقوم المصابون فيبنون فوق الانقاض ، دون نظام ولا ترتيب ، ولا اهتمام بالخير العام .



الرسم ١٦ – دمشق في منتصف القرن الثالث عشر



الرسم ١٧ – من بقايا السور

ولما كانت السلطة الحاكمة تخشى هجوم العباسيين على المدينة ، رأت ان تعيد الاسوار ، فرفعتها اولًا دكًا ثم بالبناء الحجري ، وذلك في القرن العاشر. ولكن التخطيط الجديد لم يوافق ، الا في بعض مواقعه ، تخطيط السور الروماني ، وقد استفاد المجدّدون من ابوابه القديمة ، فاصلحوها واستعملوا منها اربعة او خمسة . ولا سيما ذينك اللذين كانا ينفتحان على طرفي الجادّة الوسطى . ولكن الابواب صُغِّرت حتى نصفها فسهل تحصينها والدفاع عنها .

ومما يجب ذكره في هذا العهد نشأة بعض الضواحي كضاحية « العقَيبة » في الشمال ، وهي تصغير « العقبة » سُميت كذلك لوقوعها على المنحدر الذي يحدّ وادي النهر من ناحية الشمال . وكضاحية « الشاغور » في الجنوب . و« قصر الحجّاج » في الجنوب الغربي ، على مسافة من المدينة ، وقد دعي كذلك نسبةً الى منزل احد امراء الامويين . وقد نشأت هذه الضواحي بداهةً ، دون ان يكون لها تصميم يوجّه تطوُّرها ، فاخذت المنازل تتتابع ، على عمق قليل ، طول الطرقات الواصلة الى ابواب السور المحصّن .

وهي في اكثرها ضواحٍ زراعية يقيم فيها باعة الخضروات . ومن ثمّ فلا نغترّ باهميتها ، ولا نستنتج منها ازدهار المدينة . انما كانت هذه تقاسي الامرّين من صعوبة الزمن واهمال السلطة فتحتال على الحياة منتظرةً ايام الهناء .

الاتابك والايوبيّون

(الرسم ١٦)

في السنة ١٠٧٦ ، توفّق الامير اتسِز التركي ، فنزع دمشق من ايدي الفاطميين ، واعلن فيها سلطة السلاجقة . فاخذ هؤلاء يحكمونها إما مباشرةً ، وإما بواسطة اتابكهم . وكان من اشهرهم نور الدين . ثم كان الحكم لصلاح الدين ، فأسس الدولة الايوبية ، متبعاً مبادئ سلفائه وسياستهم . وقد ظلّت دمشق ايوبيّة حتى غزوة المغول في السنة ١٢٦٠ .

وكان هذا العصر في دمشق عصر نهضة حقيقية ، سبّبها وجود البلاط السلطاني في المدينة . ولا يخفى ما كان في ذاك البلاط من جيوش مأجورة ، ومن حرس خاصّ معروف باسم « المماليك » ومشهور بالامانة ، ومن معاونين ، وقوّاد ،

يضاف اليهم اقرباء السلطان وحاشياتهم ومماليكهم . وان ظهر هذا الجمهور قليل الاهمية من حيث العدد، وهو لا يتجاوز البضعة الآلاف، فانه كان كثيرها بالنظر الى ما كان لهذه الآلاف من موارد مالية غزيرة تكوّن عاملاً مهمّاً في الازدهار الاقتصادي. وليس بالقليل ما ينفقونه في سبيل حاجاتهم اليوميـة ، وما يبذرونه في سبيل كمالياتهم الترفيّة والبذخيّة . فلهم وحدهم تقريباً تشتغل العامّة، آمنةً في ظلّ النظام الجديد ، وبفضلهم تنهض التجارة والصناعة نهضةً جديدة .

وفوق هذا فان اتابك السلاجقة والايوبيين وسموا دمشق بسمة خاصة دائمة ، إذ جعلوها موقعاً حربياً،ومركزاً ثقافياً ودينياً . وكانت سياستهم متجهة بكاملها نحو تمجيد الاسلام السنّي ، يعملون له ، في الخارج، بمحاربتهم الفاطميين والصليبيين ، وفي الداخل ، بنشرهم دعوة فعّالة ضدّ البـدع الشيعية . واذاً فقد كان من همّهم ان يعتنوا اعتناء خاصّاً من جهة بالمنشآت العسكرية الرامية الى الدفاع عن المدينة وقد هدّدها الفرنجة مرّتين سنة ١١٢٩ و١١٤٨ ، ومن جهة اخرى ببناء « المدارس » العاملة على تثقيف رجال الادارة وفقاً لمبادئ الاسلام الصحيح .

وليس ما يدلّ على هذه النزعات الجديدة كبناء « القلعة » ، وقـد انشأها بكاملها الامير اتسز نفسه دون شك ، على الزاوية الشمالية الغربية من السور الروماني ، فاستعان بقسم من الأسس القديمة ومن موادّ البناء كذلك . وقد اعتنى الاتابك بها اعتناء دقيقاً ، على انهم رأوا ان يرمموها بكاملها منذ السنة ١٢٠٦ ، فيجدّدوا مواقع الدفاع فيها وفقاً لتقـدّم الفنّ الحربي . والى هذا الترميم ترقى في حالتها الحاضرة ، ظاهرةً على شكل مستطيل فسيح يبلغ ٢٢٠ متراً في ١٦٠ متراً عرضاً، له مدخلان، ويدور حوله ثلاثة عشر برجاً عظيماً (الرسم ١٧) . ولهذه القلعة قيمة خاصّة بالنسبة الى نظام المدينة وحياتها . فهي لا تكتفي بكونها الملاذ الاخير للمحاصَرين تلجأ اليها قوى الدفاع ، كما كانت القلعـة القديمة ، بل انها ، قبل كل شيء ، مقام السلطان . تجتمع فيها ، حول شخصه ، دوائر الحكومة بكاملها . فيها منزل السلطان الخاصّ وما يتعلق به من المرافق . وفيها ردهة العرش او الإيوان ، ودوائر الادارة المدنية والعسكرية ، وبرج الحمائم يأوي اليـه حمام الزاجل المستعمل للمراسلات ، وثكنـات الحرس ،

ومخازن السلاح ، وبيت المال ، ودار صك النقود ، والسجن ، بل فيها قبور الاسرة المالكة . حتى لم يبقَ خارجاً عنها الا المحكمة القائمة ، منذ عهد نور الدين ، في بناء خاصّ يدعى « دار العدل » على مقربة من القلعة . وللقلعة ايضاً سوقها الخاصّة ، وحماماتها ، ومسجدها الجامع يجتمع فيه سكانها لصلاة الجمعة . ولا يخرج منها السلطان الى الجامع الاموي الا في العيدين ، دلالةً واضحةً على كونه رئيساً لدولة اسلامية ، ونائباً للخليفة . وهكذا تبدو القلعة مستقلّة الى جنب المدينة ؛ وكأنها السراي العثمانية لما بينهما من اوجه للشبه دقيقة تتجاوز ما تقدّم ذكره . . فهي مدينة مستقلّة تكتفي بنفسها ، وتنقلنا بالفكر خلالَ بلاد ايران وآسية الوسطى ، الى « المدينة المحرّمة » في المدن الصينية .

ومن مظاهر اهتمام السلاطين بالشؤون الحربية ترميم السور ، في القرن الثاني عشر ، ترميماً نُظر فيه الى مبادئ جدّ قريبة من طرق التحصين الرومانية والبيزنطية . وقد بني امامه ، على قسم من الجبهة الشمالية ، سور جديد في اوائل القرن الثالث عشر . ولا يبعد ان يكون هذا السور نتيجة تصميم حديث كان يرمي الى تجديد الاسوار بكاملها ، كما يظهر في مدينة حلب . فيكون ان العمل اوقف قبل نهايته بسبب الغزوات المغولية سنة ١٢٦٠ .

ويجب ان نذكر ، من المنشآت المتعلقة تعلقاً وثيقاً بالحياة العسكرية ، ذينك الميدانين اللذين كان ينزلها السلطان وقوّاده وجيوشه ، على طريقة منظمة ، فيلعبون بالكرة والصولجان ، فيروّضون جيادهم ، ويتمرّنون هم ايضاً منتظرين زمن الجهاد . وكان احد الميدانين ، وهو « الميدان الاخضر » ، يمتدّ ، غربي المدينة ، على مرج فسيح قرب النهر ، يبلغ نحو ٥٠٠ متر في ١٥٠ متراً . وفي اطرافه معالم تُشير الى الاهداف ، وحوله إطار من الشجر ، على الارجح . اما الميدان الثاني ، وهو اصغر من الاول ، فكان يقع جنوبي المدينة ممتدّاً على ارض حصباء ، ولهذا دعي « ميدان الحصى » . ولم يكن الميدانان مختصّين بالالعاب ، بل كان ينزلها من تضيق المدينة عن ايوائهم من الجماهير ، كمواكب الامراء والوفود ، والجيوش ، والقوافل المهمّة احياناً . وهما ، فوق ذلك ، من اماكن النزهة يقصدها الشعب معجباً بالعاب فرسانه .

اما في المدينة نفسها فقد اتسعت الاسواق فتجاوزت منطقة الجادة القديمة ، متجهةً جهة الجامع الاكبر . وهنا نقطة مركزيــة يجتمع فيها اكثر السكان اسبوعياً ، ان لم نقل يومياً ، فيسهاون المعاملات التجارية . وكان من فضل هذا الازدهار الاقتصادي ان الضواحي اخذت تتسع بدورها . وقد بلغ من اتساعها ان اثنتين منها ، وهما العقيبة والشاغور ، اضطرتا الى بناء مسجد جامع في كل منهما .

بيد ان هناك ظاهرة مهمّة ، بل حادثاً اساسياً ، يجدر بنا تدوينه في هذا العصر ، وهو نزعة بارزة في الطوائف الدينية الى الاجتماع معاً والاستقلال باحياء خاصّة من المدينة . هي نزعة بدأت ، دون شك ، في العصور السابقـة ، وستتسع كذلك في العصور المقبلة ؛ ولكنها جديرة بالذكر في هذا العصر خاصّة. فان النصارى اخذوا يتجمعون شيئاً فشيئاً في الزاوية الشمالية الشرقية من المدينة، واليهود تجمعوا في الجنوب الشرقي . اما المسلمون فكانوا يتجمعون متكاثرين في القسم الغربي ، يجذبهم اليه الجامع الاكبر والقلعـة والاسواق . كما ان الرغبة في الامن والطمأنينة كانت تدفع الاقليات — مع ما نشأوا عليــه من العادات والتقاليد ، وما خصّتهم به الشريعة الاسلامية من حالة خاصّة — الى تأليف جماعات متماسكة متضامنة اشدّ تضامن . وبالاختصار فان تلك الظاهرة التي رأيناها تؤول الى تأليف الاحياء او « الحارات » في ما مضى ، تعود الآن فتظهر على شكل آخر يتناول المدينة بجملها . على ان الانفصال الثقـافي لا ينال تمامه ضمن هذه الحواجز الا في ما بعد ، جارياً مع تقدّم الصفة الاسلامية الخاصّة في الدولة ، وعمق العاطفة الدينية .

ومن الطبيعي ان يكون تجمّع المسلمين في القسم الغربي قد أثّر في تعيين موقع البنايات الخاصة بهم ومن التي أنشئت في ذلك العصر . فقام مستشفى نور الدين المعروف « بالمارستان » — وهو من اشهر « المارستانات » التي عهدها الشرق في القرون الوسطى — على مقربة من الجامع الاموي . وفي جواره عدد من الربط او الخوانق ، وكثير من تلك المدارس العاملة على نشر العلوم الاسلامية بين الشعب وعلى تأييد تعلّقهم بالسُنّة . ولقد كان الطلّاب في بعضها ، فوق التعليم

المجاني ، يتناولون مبلغا من المال يكفل معيشتهم ، على شريطة ان يصلّوا عن انفس مؤسسي تلك المدارس . وكان هؤلاء المؤسسون ، اول الامر ، من امراء الدولة . ثم اخـذ اعضاء الاسرة الحاكمة ، وكبار الرجال والقوّاد ، ووجهاء المدينة يتنافسون في هذه الابنية ، حتى اصبح في دمشق نحو مائة مدرسة في منتصف القرن الثالث عشر ، يقوم اكثرها ، كما قدّمنا ، في القسم الغربي ، على ان منها ما قام بعيداً عن ذلك المجتمع ، خارج الاسوار ، في عزلة موافقة للدرس والصلاة . ويمكننا ان نجمع هذه البنايات القائمة خارج الاسوار في مجموعين مهمين : احدهما يشرف على الميدان الاخضر ، في مكان وضعت فيه الاسطورة « قبور البرامكة » ، ولم يلبث ان احاطت به مقابر الصوفيـة . والآخر في لحف الجبل المشرف على دمشق . وفيه ازدحمت المدارس ، والربط ، والمشاهد ، حتى ألفت ضاحية دُعيت « بالصالحية » نسبةً الى مسجد ابي صالح الذي نزله ، على ما يُقال ، مؤسس اول بناء أُقيم في هذا المكان . وكان من نمو سكان الصالحية انهم لم يلبثوا ان انشأوا سوقاً خاصة ، ومسجداً جامعاً . ثم نزل بالقرب من هذا المسجد طارئة من الاكراد لحقوا بوطنييهم السلطـان صلاح الدين . بيدَ ان هذه الضواحي ، وان اعتبرناها تمديدات للمدينة ، فقد ظلّت مدة القرون العديدة تحيا حياةً خاصة مستقلة عن حياة المجتمع الاصلي .

ولا يؤخذنّ المطالع بعدد هذه البنايات الجديدة . فانها لم تغيّر شيئاً مهماً في منظر دمشق العامّ . لا شكّ في انها بنايات حسنة التصميم ، جميلة البناء ، ذات واجهات من الحجر المنحوت ، متميزة تماماً عما حولها من الحيطان المطليّـة بالطين . ولكن قوامها لا يرتفع بارزاً فوق مستوى السطوح ، والقبب التي تعلو قبور مؤسسيها لا تتصف من الارتفاع والفخامة بحيث لا تضيع في المنظر العام الشامل . واذاً فان بناء هذه المدارس لم يكد يؤثر في جمال المدينة .

وكان من تعلق رجال السلطة بالسنة انهم اقاموا في المقابر المختلفة الممتدة امام ابواب السور ، ولا سيما في المقبرة الكبرى الواقعة امام « الباب الصغير » ، مشاهد تذكارية في عدة مواقع عيّن فيها التقليد قبور الصحابة .

وهكذا كان نصيب دمشق ان تعود الى نهضتها ، منـذ منتصف القرن

الثالث عشر، بفضل النظام والازدهار الاقتصادي الناتجين من ادارة امراء الترك، فتسترجع صفات المدينة الكبيرة الظاهرة مركزاً سياسياً، وتجارياً، وصناعياً، وحربياً، وثقافياً، ودينياً.

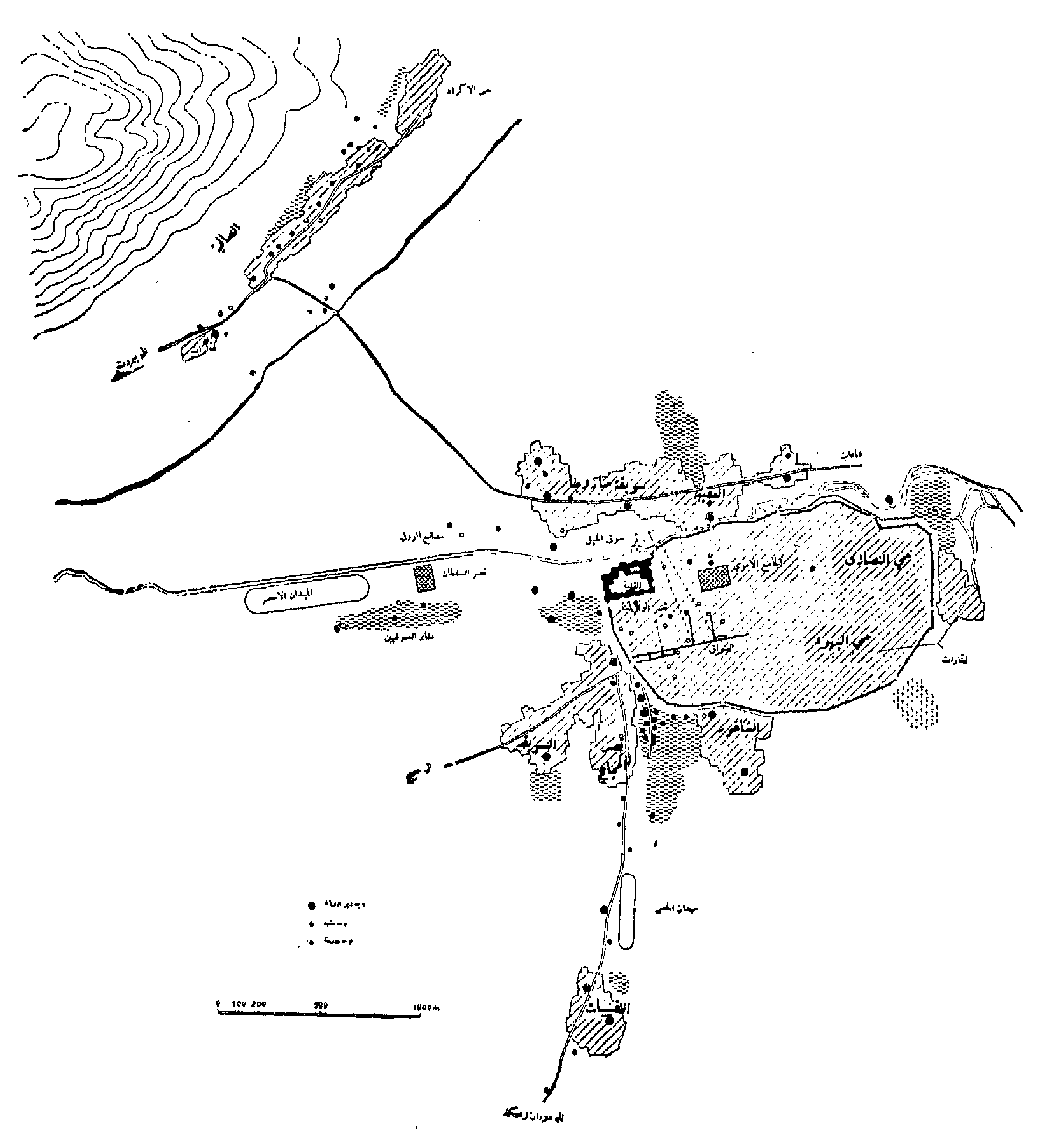
المماليك
(الرسم ١٨)

ثم كان الاكتساح المغولي سنة ١٢٦٠، فبدأت حقبة جديدة في تاريخ دمشق.


اصبحت سورية بكاملها، اعتباراً من هذا التاريخ، مقاطعة لاحقة بدولة مصر. وعلى رأس هذه الدولة «المماليك» الترك الذين ثاروا على سادتهم، سلاطين الايوبيين، واغتصبوا عرشهم. وقد ظهرت هذه الدولة المصرية - السورية، في اول عهدها، بارزة القوة حتى انها اعتبرت المركز الحقيقي للسياسة والثقافة في العالم الاسلامي. وذلك بفضل ما امتاز به اثنان من كبار سلاطينها، هما بيبرس وقلاوون، من صفات خاصة، وبما توفقا اليه من طرد الصليبيين واتباع تقاليد الايوبيين. على ان هؤلاء المماليك انفسهم اخذوا، منذ اواخر القرن الرابع عشر، يجمعون حولهم مماليك جدداً من الجركس لم يلبثوا ان اغتصبوا الحكم بدورهم، فبدأوا عهداً من الارهاب، والسلب، والتعديات، والتهاون في ضبط الامور، عجل، دون شك، خراب المملكة، حتى ظهرت جيوش العثمانيين فطردتهم، دون تعب، سنة ١٥١٦

وان اهم عامل في تطوُّر دمشق، مدة هذا العهد، بل العامل الوحيد تقريباً في ذاك التطوُّر هو اهمية العنصر العسكري في تكوين الدولة. ولم يكن في هذا العنصر الا المماليك والموالي، وكلهم جهلة، جشعون، شرسو الاخلاق، يخرج منهم رجال الحكم من اصغر موظفي الدولة حتى السلطان نفسه.

وكان من نتيجة ذلك — وهو امر غريب في الظاهر فقط — ان حركة المدينة الاقتصادية نالت ازدهاراً عجيباً في هذا العهد التاعس. وذلك ان جميع هؤلاء المغامرين، الذين نالوا الرفعة من حماقة الحظ فعاشوا يقلقهم خوف الاغتيال او خشية الاعتقال، لم يهتموا، من شؤون الدولة، الا بتوفير ملذاتهم والحياة في بذخ وترف غريبين، نكتفي بمثل واحد في الدلالة على مبلغهما.



الرسم ١٨ – دمشق في اوائل القرن السادس عشر



الرسم ٣٠ – دمشق في منتصف القرن التاسع عشر

وهو ان الامير سلّار ، بعد ان قضى احدى عشرة سنة في ولاية مصر ، توفي تاركاً عدة ملايين من النقود وعدداً كبيراً من العبيد والبنايات . يُضاف الى ذلك وزن طنّ ونصف طن من آنية الفضة ، و٧٥٠ كيلوغراماً من قنا الرايات المصوغة فضةً ، و١٠٠ سرج مزركش بالـذهب ، و٤٠٠ ثوب من الحرير المبطّن بالفرو ، و٣٠٠ من الثياب الفاخرة للحفلات ، و ١٠٠٠ قطعة حريرية ، و١٦ مضرباً مغشى بالحرير الاحمر المزركش ، و٣٠٠ فرس ، و٧٠ كيـلوغراماً من الحجارة الكريمة ، و٥٩٣٠٠٠ هكتوليتر من الحبوب . واذاً فلا عجب ان تكثر كماليات هؤلاء السادة الحديثي النعمة فيشتغل في سبيلهم جميع رجـال الصنائع التي عزّزها وجود البلاط السلطاني في دمشق مدة القرون السابقـة ؛ وهكذا غدت دمشق مدينة صناعية عظيمة مختصة بالمنتجات الشرقية تغذي بها تجارةً داخلية واسعة النطاق .

وكانت تلك المصنوعات تُصدر الى الخارج ايضاً . فان الحروب الصليبية كان من نتائجها ان اعادت العلاقات بين الغرب المسيحي والشرق الاسلامي ، بعد ان انقطعت مدَّة طويلة . وكانت اوربة ، وهي حافلة بمظاهر الحياة اذ ذاك ، لم تتجاوز بعد الافق الجغرافي الضيّق الذي عرفته العصور القديمة ، فلم تعرف غير الشرق الادنى سوقاً للمنتجات الغريبة كالافاويه والاصباغ والحرير ومـا شاكل . فكانت البندقية وبيزة وجنوى ومرافئ فرنسة الجنوبيـة تعمل في استغلال تلك السوق على اتمّ ما يمكن من مهارة ، وتتنافس في الحصول على الاولية التجارية . وكان لدمشق ان تستفيد نوعاً ما من هذه الحركة التبادلية الواسعة ، على رغم ما كانت تعانيه من مزاحمة حلب لها . وموقع حلب الجغرافي افضل من موقعها ، ومقامها كذلك اوفق للفرنجة من مقام دمشق . لانهم كانوا في دمشق عرضة لاستبداد الحاكم ، وهو من اعظم رجال المملكة سلطة ، وهدفاً لبغض السكّان المستعدّين دائماً لرجمهم اذا ما ظهروا راكبين الخيل ، او اذا اهملوا التعمّم بعمّة النصارى الزرقاء . ولهذا لم يؤسّس تجّار الفرنجة في دمشق محلّا دائماً على شيء من الاهمية . انما كانوا يأتون السوق كثيراً ، على مثال جاك كور ، فيبيعون فيها الاجواخ الآتية من الفلاندر ، والعبيد المستوردة من المستعمرات

الجنوية في البحر الاسود . ويشترون ، لا المواد الاولية كما في اسواق حلب ، بل منتجات الصناعة المحلية النفيسة كالحرائر الدمشقية « *damassés* » والنحاس المنزّل بالفضة « *damasquinés* » ، ونصول دمشق الشهيرة ، وقد نُقشت قبل سقيها فبدت متموّجة اللمعان ، وآنيـة الزجاج الدمشقية الفائقة الزخرف بالمينا ، تلك الآنية المذكورة في لوائح اثاث ملوك فرنسة ، والتي تفتخر بها كنوز بعض الكاتدرائيات الغربية .

وكان ان هذه الحركة الصناعية والتجارية اثرت ضرورةً في تطوّر المدينة ، فاتسعت الاسواق اتساعاً جديدًا ، واثّر فيها كذلك تفوّق العنصر العسكري ، فاخذت محلات البيع والشراء تتميّز مائلةً الى الاختصاص بالنسبة الى زبائنها .

فظهر ، امام باب القلعة الشمالي ، ميدان فسيح دعي « تحت القلعة » ، كانت تُقام فيه « سوق الخيل » . وهي ضرورية لتموين الجيش المؤلف من الخيالة وحدهم . وفي هذا الميدان ، كان الحاكم يجمع الحامية ، مرتين في الاسبوع ، اثناء الحفلة التي تتقدم مجلس القضاء الحافل ، فيستعرض الجند ويراقب الخيل والسلاح والاعتدة ، ويُعلن الترقيات والقرارات . ولما كانت سوق الخيل قد اصبحت مركز الحياة العسكرية ، وموقف الجنود العادي ، اخذ جميع الصناعيين العاملين في سبيل افراد الجيش ، كتجار الاقمشة والثياب والخياطين ، وصنّاع الاسلحة ، واصحاب المطاعم والخمّارات ، وباعـة السلع العتيقة ؛ وجميع من يعملون في سبيل الخيل كباعة الشعير والتبن ، وصنّاع المذاري والغرابيـل ، والسروجيين ، يتركون شيئاً فشيئاً حوانيتهم ضمن الاسوار ، ويأتون مجتمعيـن « تحت القلعة » حول الميدان المذكور ، وعلى ممرّ الطرقات الموصلة اليه (الرسم ١٩) . وكذلك عمل هذا المركز على جذب باعة الخضر والفواكه ، فاخذ يُقام فيه سوق خاصة كل نهار جمعة .

ومن اثر تجمّع ارباب الصناعات هذا ، خارجاً عن المركز التجاري الاصلي ، أنّ الصناعيين والتجار الذين يعملون في سبيل سكان المدينة وجدوا متسعاً لهم في الاسواق القديمة فاستغلّوه وفقاً لمتطلبات الحركة الاقتصاديـة . فتكاثرت الدبّاغات ، وهي ضرورية لصناعة السروج ، حتى ان مصانع الورق التي كانت

الى جنبها اضطرت الى الانتقال الى منطقة جديدة . وكذلك القول عن مصانع الفخار فانها تكاثرت حتى ألفت ضاحية جديــدة خارج الباب الشرقي ، لان مصنوعاتها ، بعد ان ظهر فيها تأثير الخزف الصيني ، اشتهرت شهرة واسعة محتلة حتى اسواق القاهرة . اما الساحات التي كانت تقام فيها اسواق الماشية وسوق الاحد فقد حفلت بالمنازل لان تلك الاسواق لم يبقَ لها من منفعة فتلاشت.

ولا يخفى ان الحاجة الى اليد العاملة تزيد عدد السكان . فنشأ من ذلك ضاحيتان جديدتان خصّتا بالسكن ، وبرهاننا على ذلك في اسميهما المأخوذين من «السويقة» التي كان سكانهما يشترون منها. وقد نشأت الاولى منهما في الجنوب الغربي على الطريق الآخـذة نحو عكا وصور ومصر . ودُعيت «السُويقة» على الاطلاق، وحفلت بالكثير من الخانات الضرورية لنزول القوافل. اما الضاحية الثانية فاسمها «سويقة صاروجا» ولا نعرف مَن يمثّل هذا الاسم ؛ نشأت في شمالي المدينة على طريق الصالحية وبيروت ، قريبة من سوق الخيل ، واختصت على الغالب بسكنى الضباط والجنود.

اما القلعة فقد كان لها نظام خاصّ . لم يكن للحاكم ايّ سلطة عليها، بل لم يكن له الحقّ بدخولها ، وذلك خوفاً من ان يستند اليها حكام المدينة في ثورتهم على السلطان . انما كانت تخضع لقائد خاصّ يتعلق رأساً بالسلطان . فهي مدينة ملكية مستقلة ، وان لم يكن هناك سلطان تتعلّق به . اما الحاكم فقد كان يقيم ، مع دوائر حكومته ، في قصر العدل القديم.

ولم يكن ذلك الازدهار الاقتصادي الذي اشرنا اليه كل ما انتجتــه من الغرائب سلطة المماليك . فقد كان هؤلاء المسيطرون السكارى الاميّون الجُفاة يرغبون في البناء، وقد تركوا فى دمشق عدداً من الآثار غدت زينة للمدينة. ولما كانوا دائمي القلق فى حياتهم ، عمدوا قبل كل شيء ، الى تأمين دفنهم ، فأقاموا تلك المقابر الفخمة ذات الواجهات المتعـددة الالوان ، والقبب الرفيعة ، المزيّنة بالتصاوير ، الظاهرة فى منظر المدينة مظهر الجمال الملوّن. وهي تتسلسل خاصةً على طريق مكة لينال الباني بركة صلوات الحجاج فى طريقهم الى البيت الحرام . واهتموا ايضاً ببناء المساجد الجامعة ، وهي من نتائج تطور الافكار

الدينية واتساع المدينة ، فقامت في جميع الاحياء مرتفعةً مآذنها المربّعة او المتعدّدة الاضلاع بما عليها من الشرفات والخرجات ، باسقة ، في كل ناحية ، عن مستوى السطوح العادي ، مضيفةً الى منظر دمشق مشهدًا جديدًا ، معلّقةً وسط السماء ، طول ليالي رمضان ، اكاليل متنوعة من الانوار.

بيدَ انه ، منذ منتصف القرن الخامس عشر ، بدأت ازمة اقتصادية شديدة الوطأة . وذلك ان النظام الغريب الذي كان سائدًا في مصر وسورية منذ مائتي سنة ولّد فقرًا شاملًا في جميع الطبقات . ففرغت خزائن الدولة ، حتى اضطرت الحكومة الى الاحتيال على المعيشة . وقلّت مقدرة كبار الرجال على المشترى ، فخفّفت الصناعة من منتجاتها . وثقلت وطأة الضرائب والمكوس على التجار ، فوق استبداد الموظّفين ، فدخلت التجارة في طور نزاع حتى قضت عليها اكتشافات البرتغاليين عندما افقدوا طرق البحر المتوسط اهمّيتها السابقة . ولقد كان نصيب دمشق وافرًا من ذلك الشقاء ، ولاسيا بعد ان اكتسحها تيمورلنك سنة ١٤٠٠ ، فجلا عنها عددًا كبيرًا من الحاكة وصناع الزجاج والاسلحة ، واضطرهم الى المسير نحو سمرقند . فانحطت انحطاطًا لم تنهض منه . ولم تكن الا مدينة نصف خربة عندما دخلها السلطان سليم سنة ١٥١٦

العثمانيون

(الرسم ٢٠)

لم يغيّر خضوع سورية لسلاطين القسطنطينية شيئاً مهمًّا في النظام الاجتماعي ، الا في ما خصّ مبدأ الحكم . فان الباشاوات لم يكونوا ، على الغالب ، اقلّ جهلًا ، ولا شراسةً ، ولا اضطراباً في مراكزهم من حكام المماليك ، ولا ابعد عن النهم في المال بفضل ما كانوا يفرضونه على السكان من الضرائب والغرامات بسبب وبغير سبب . وان يكن جمهور الجيش ابعد عن اثارة الفتن من الجيش المملوكي ، فان هناك فرقتين ممتازتين ، هما « الشرفاء » و « الانكچارية » ، كانتا تتنافسان دائمًا في سبيل التفوّق وبسط النفوذ ، وكثيرًا ما كانت تنتهي منافساتهما بالعراك المسلّح . اما خارج المدن فلم يبقَ من سيادة للامن ، وها ان البدو وقطّاع الطرق ينهبون القوافل ولا يخشون عقاباً .

ولكن لم يكن لهذه المظاهر المحلية من تأثير عامّ . فان تطوّر دمشق ، في هذا العصر ، تأثّر بعوامل اهمّ مما تقدّم ، هي تلك العوامل التي كانت تهم الامبراطورية بأسرها .

واولها كيان تلك الامبراطورية نفسها الشاملة شرق البحر المتوسط بكامله . حتى اصبح ممكناً لكل فرد من رعية السلطان الأعظم ان يسافر من الدانوب الى الاوقيانوس الهندي ، ومن بـلاد العجم الى المغرب ، دون ان يخرج عن الشرائع نفسها ولا عن النظام الاداري الذي اعتاده ، بل دون ان يضطر الى استعمال لغة جديدة ، ولا ان يحتاج الى الأخذ بقطع من النقود غير التي عرفها في بلاده . وهي حالة لا تخفى اهميتها في سبيل تعزيز حركة التجارة الداخلية ، حتى ان المكوس والرسوم المتعدّدة ، واستبداد الموظفـين ، واضطراب الامن في الطرقات لم تتمكن من عرقلتهـا ، لانها كانت تمدّ تجارةً خارجية وافرة الارباح . وذلك ان الموافقة على « الامتيازات الاجنبية » فتحت المرافئَ التركية لتجار اوربة فاخذوا يصدّرون اليها الكميات الهائلة من المصنوعات على اختلاف انواعها ، ويستوردون منها كميات كبيرة من الموادّ الاولية . وكان اكثر الناس فائدةً من هذه الحركة نصارى البلاد ، فان معرفتهم بالعادات المحلية سهلت لهم اعمال الوساطة والسمسرة والترجمة . وقد استفادت دمشق فائدة جليلة من هذه الحركة التجارية المزدوجة بفضل قربها من « اسكلة » صيدا الفرنسوية .

على ان حركتها المهمة كانت تتجه ناحية اخرى ، وذلـك بفضل موقعها الجغرافي على طريق الحجّ . وهكذا فقد كان الحجّ الى مكة مورد المدينة الاعظم حتى آخر القرن التاسع عشر .

ولا يخفى ان الوصول الى الحرَمين بطريق البرّ يفرض مشقات جمة . فكان اذاً على سلاطين آل عثمان ، وهم رؤساء الاسلام السُنّي ، ان يهتموا بتسهيل الحجّ على المؤمنين ، منظِّمين طريقه . فأنشأوا ، على طرقات مملكتهم المتجهة نحو الحجاز ، الخانات ، والجسور ، والمخافر ، واقاموا في الباديـة حصوناً لحراسة الآبار ، وجعلوا من دمشق ، وهي آخر محطة في بلاد الحضر المأهولـة المتمدّنة ، محل اجتماع الحجاج القادمـين من الشمال . فكان والي دمشق ،

في الميعاد المعيّن كل سنة ، وقد دُعي بلقب طالما تاق اليه الباشاوات وهو لقب « امير الحجّ » ، يترك المدينــة في موكب حافل ، مرافقاً « المحمل » ، شعار سيادة السلطان على « الحرمين الشريفين » . فيصل الى المزيريب في حوران ، على حدود ارض القبائل ، حيث ينتظره الحجاج : ومن هنـاك يقود بنفسه تلك القافلة العظيمة يحميها الجيش بمدافعه عند الحاجة ملقياً الهيبة في قلوب البدو . وهي مهمّة خطرة قد تذهب بحياة الوالي ان لم يكن جديراً بتحمل مسؤوليتها .

ولكي نفهم اهمية هذا الحادث السنوي ، على وجهه التامّ ، علينـا ان ننتبه ان هذا النظام لا يستفيد منه السوريون وحدهم ، بل هناك ايضاً مسلمو الجزيرة العليا ، وكردستان ، والقوقاس ، واذربيجان ، والاناضول ، والبلقان ، والقريم ومسلمو استانبول نفسها ، وهي اوفر مدن البحر المتوسط سكّاناً بعد البندقية . واذاً فان لدينا عشرات الالوف من المسلمين يستدعيهم الامان السائد على « درب الحجّ » فيمرّون في دمشق مرّتين : ذهاباً واياباً .

وفي دمشق يستعدّون لقطع الباديــة . فيستأجرون او يشترون الدوابّ ، ويأخذون المعدّات للنزول في الصحراء ، ويهتمون خاصة بالمؤونــة الكافية لمعيشتهم حتى رجوعهم الى دمشق . لانه لا مورد لهم في الصحارى المقفرة التي سيقطعونها ، ولا في الاماكن المقدسة التي سينزلونها . ومن الطبيعي ان يفضلوا اسهل المآكل حفظاً ، وافضلها غذاء ، وهو القمح . وكم يلزم من اطنـان القمح لتغذية عشرين او ثلثين الف رجل مدة ثلاثة اشهر ! ويجتهد الحجّاج في ان يستعيضوا بعض الشيء من نفقات حجهم ، فيأتون ، في ايابهم ، بكثير من البضائع الوافرة الارباح على صغر حجمها ، كسلع الشرق الاقصى ، والبنّ ، والعبيد السودان والحبش ، فيبيعون كل ذلك في دمشق ، اول مدينة متحضّرة في طريقهم . وهكذا يحدث الحجّ في المدينة حركة نشيطة تظلّ ، حتى اوائل عصرنا ، العامل الاهمّ في تطوّر تجارتها .

وكان الدور المهمّ في حياة المدينة اذ ذاك للقوافل . وهو ما يبرّر انشاء الخانات العديدة مستودعات وفنادق للاجانب من التجار . واقدم تلك الخانات لا يختلف تصميمه عما نعهده في سورية ؛ ففي وسطه ساحة مربّعة على الغالب ،

يحيط بها رواق دائر مرتفع على اعمدة ، تنفتح فيه الحوانيت والاصطبل ؛ وتختصّ الطبقة العليا بغرف السكن . على انه منذ القرن الثامن عشر ، بل قد يكون منذ القرن السابع عشر ، ظهر بعض التغيير في هذا التصميم العادي وذلك ان الساحة المركزية اخذت تضيق وتسقف بالقباب فتتحوّل الى مستودع تكون فيه البضائع بمأمن من تقلبات الجوّ . وان نشأة هذا الطراز الجديد ، الخاص بدمشق ، لدليل على ان الخان اصبح اذ ذاك عنصراً حيّاً فعّالاً في المدينة .

ثم اننا نرى ان كل ما يتعلّق بالحجّ من مظاهر التجارة يتمركز على طريق مكة ، فتظهر هناك خارج الباب الغربي ، على ضفة الخندق ، في المحلّ المدعو «السنانيّة» ، نسبةً الى الجامع القريب وهو من بناء سنان باشا ، مجموعة من الاسواق يجد فيها المسافرون ، وارباب القوافل ، وباعة القمح من الفلاحين ، واصحاب الابل من البدو ، كل ما يحتاجون اليه من ثياب ، واحذية ، ومعدّات للمضارب ، واكياس ، ورحال وما شاكل . وابعد من ذلك ، على الطريق التي تؤدي الى الحجاز والى اراضي حوران الخصبة ، تتتابع مستودعات القمح دون انقطاع بين المشاهد المبنية من عهد المماليك ، فتؤلف ضاحية يبلغ طولها الثلاثة كيلومترات تنمو فتطغي على قرية صغيرة تدعى « القبيبات » اي القباب الصغيرة ، كان يسكنها زرّاع الاراضي المجاورة . ولا تلبث تلك الضاحية ان تدعى «الميدان» باسم « ميدان الحصى » القديم وهو قريب منها . ويدعى طرفها الجنوبي « باب الله » وهو المحلّ الذي يترك فيه الحجاج مدينة دمشق متجهين نحو البيت الحرام . اما سكان تلك الضاحية فكلهم من باعة القمح ، والفلّاحين ، والبدو ومن اليهم . وكان من الطبيعي ان تُقام سوق الجمال على مقربة من هذه الضاحية ذات الاختصاص ، كما ان سوق الخيل ، وقد فقدت اهميتها ، اخذت تتراجع امام تقدّم الاسواق التجارية التي كانت تحيط بها .

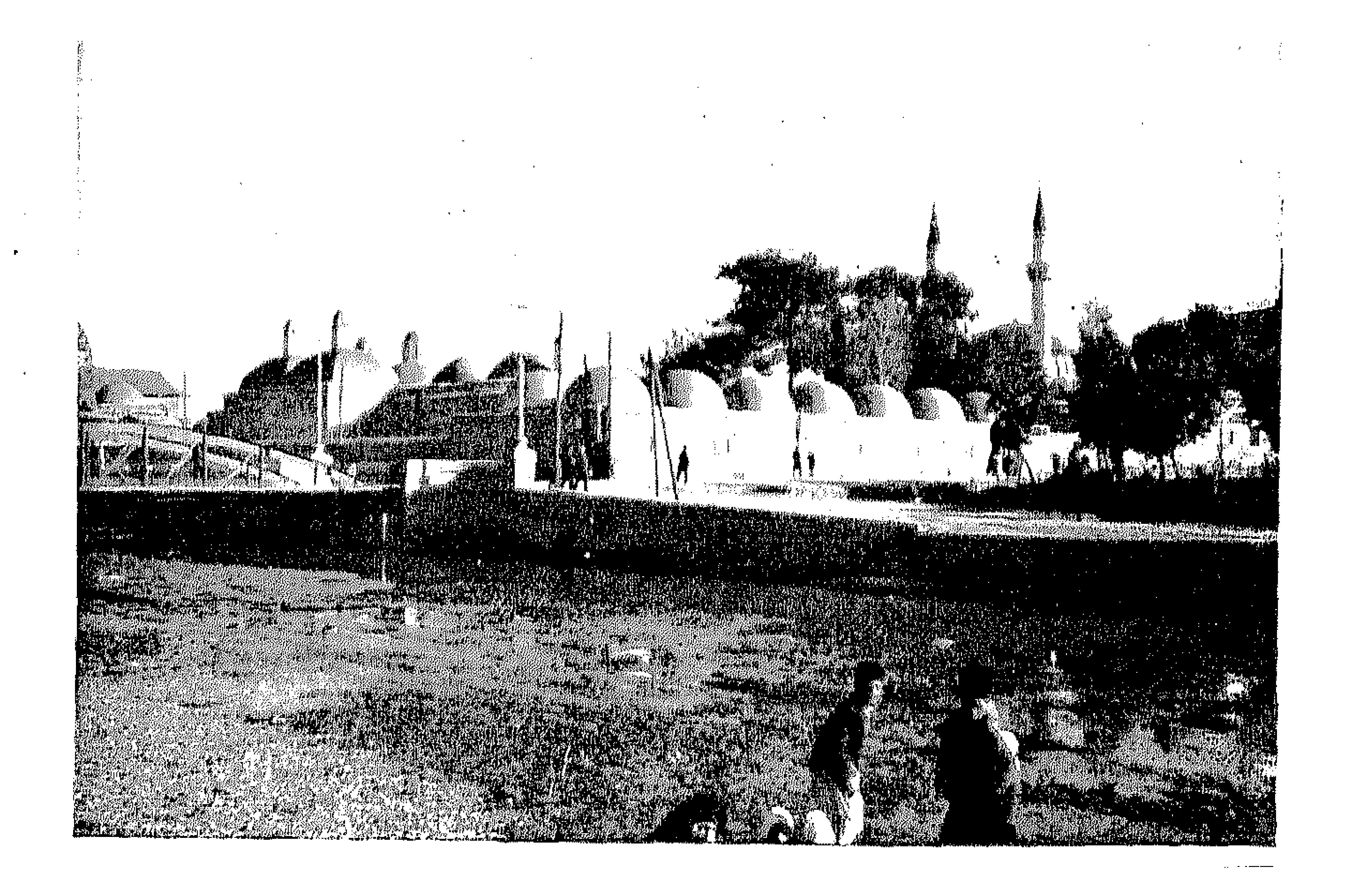
وكان من نتائج بعد الحدود السياسية ذلك البعد العجيب ان المدينة اصبحت بمأمن من الغارات والاكتساحات ، فلم يبقَ من منفعة للتحصينات القديمة . ولهذا رأينا منازل السكن تكتسح الاسوار شيئاً فشيئاً ؛ والخندق تملأه الاوساخ والفضلات . اما القلعة فقد تداعت للسقوط ، ولم يبقَ فيها الا عدد قليل من

الرجال العاطلين . على انها ظلّت محافظة على صفتها المعروفة منذ عهد المماليك ، فبقيت تتعلق رأساً بالسلطان ، وعليها حاكم خاصّ ، اشارةً الى سلطة السلطان المهدِّدة دائماً الباشا الوالي . ومقام هذا ، مع دوائر الحكومة ، في السراي ، خارج المدينة ، يلتفّ حوله كبار الاسر التركية ، موجدين ضاحية جديدة تمتدّ على طول القناة الرومانية القديمة ، وتدعى «القنوات» . امـــا باقي الضّواحي كسويقة صاروجا ، والعقَيبة ، والسويقة ، فقد اتسعت كذلك بتأثير تلك الحركة العامة . وكذلك القول عن الصالحية المتسعة بفضل وصول طارئة جديدة من الاكراد . وكان الاوربيون من قناصل ، ومرسلين ، وتجار ، ينزلون ، بين ارباب دينهم ، في حيّ باب توما الحافل بالمنازل الجميلة.

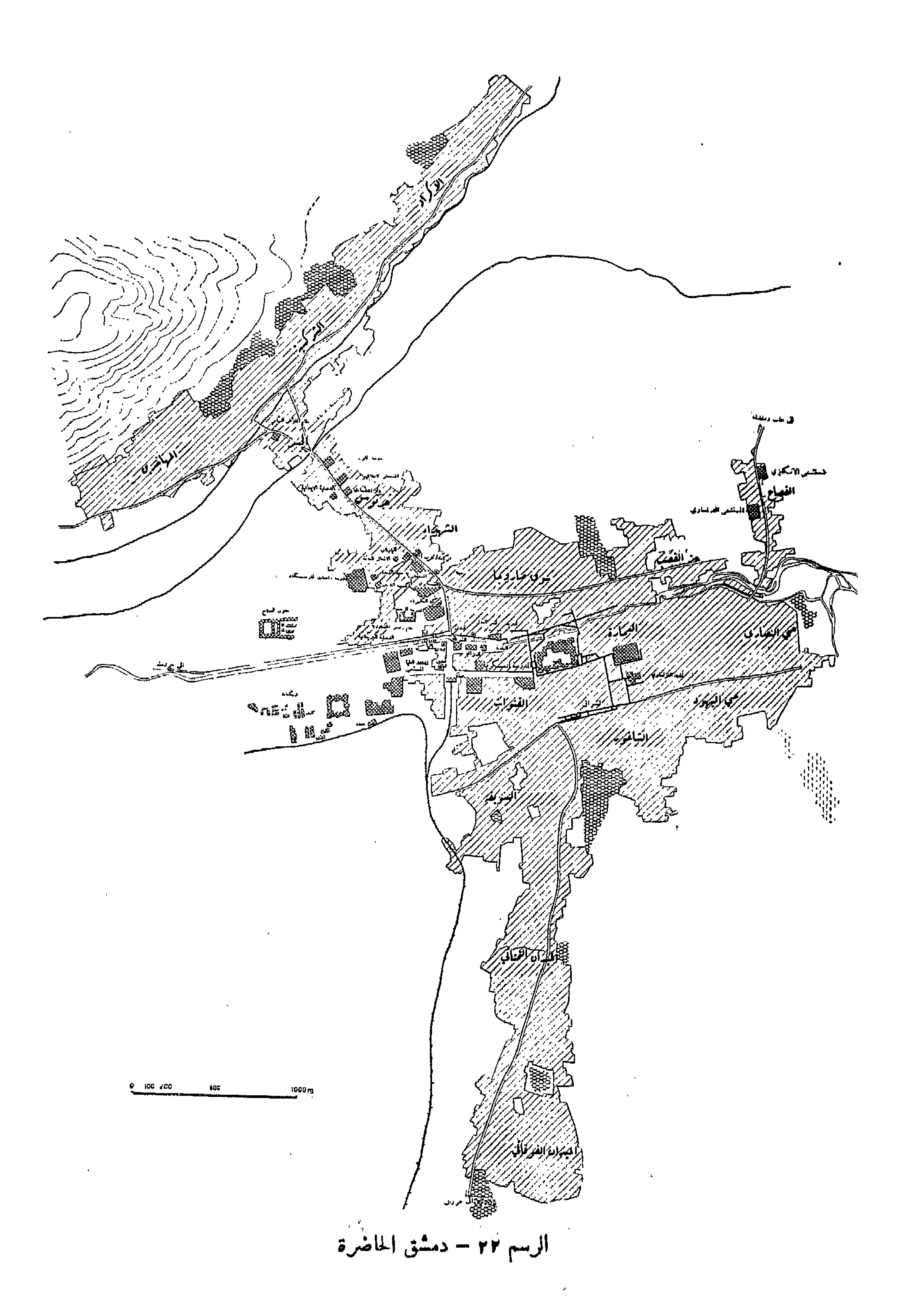
ولنشر اخيراً الى ان الباشاوات انشأوا بعض الجوامع الكبيرة ، وان كانت قليلة العدد . وقد بنوها على طراز جوامع القسطنطينية (الرسم ٢١) فرفعت في الفضاء قبابها الفسيحة النصف الكروية ، ومآذنها النحيفة المتوّجة بما يشبه مطافئ الشمع ، فأثرت في منظر المدينة بما اثرت فيه بنايات المماليك . وكان لساحاتها التي تحيطها الاروقة اللطيفة ذات القبب ، وتظللها الدوالي وشجر الدلب ، ان تثير ، في قلب دمشق ، تلك اللذة الكئيبة التي تمتاز بها استانبول.

هذا مظهر دمشق ، وقد بدت مستعدَّة للتأثر بالثقافة الاوربية ، على اثر احتلال محمد علي لسورية ١٨٣٢ — ١٨٤٠





الرسم ٢١ - منظران لتكية السلطان سليم



الرسم ٢٢ – دمشق الحاضرة

المدينة العصرية

(الرسم ٢٢)

ان درس المدينة في العصر الحاضر يتعلّق بالجغرافية اكثر منه بالتاريخ . على اننا رغبةً في ان لا نترك الوصف ناقصاً ، نشير ، وان اشارة سطحية ، الى ما ظهر من نزعات جديدة منذئذٍ، والى ما كان لها من تأثير في التطوّر الحضري .

واننا نميز حقبتين في تطوّر المدينة العصرية :

تبدأ الاولى منهما بالاحتلال المصري سنة ١٨٣٢ ، وتنتهي بانتهاء السيادة العثمانية سنة ١٩١٨ . ولا يظهر فيها التأثير الاوربي الا بواسطة الشرقيين انفسهم كالموظفين المصريين ، والباشوات العصريين ومنهم مدحت باشا ، والمنتمين الى حزب «تركية الفتاة» . ولا يخفى ان هذا التأثير كان ناقصاً .

ظهر من جهة باهتمامات جديدة اخصّها ما تعلّق بالصحة العامة، وبحركة السير، ومن جهة اخرى بتنظيم اداري جديد ادّى الى اقامة بنايات جديدة اختصاصية.

وقد قامت هذه البنايات على الاراضي التي ظلّت خالية حتى ذلك العهد ، وهي غربي المدينة القديمة ، في « المرجة » على ضفتي النهر . فبنيت هناك السراي — وهي غير مركز اركان الحرب المعروف « بالمشيرية » — ومركز البلدية ، وادارة البوسطة ، وقصر العدل ، والجامعة ، والثكنات ، ومحطة سكة حديد بيروت والحجاز ، وادارة شركة الترامواي الخ . .

وكان من اثر الاهتمامات الصحية اعادة توزيع المياه ، ونشأة احياء بعيدة عن وسط المدينة القديم . وكانت السلطة في اواخر القرن التاسع عشر ، قد انزلت في سفح الجبل في الطرف الغربي من الصالحيــة ، مَن هاجر من مسلمي اقريطش ، في حيٍّ قسمته الى اقسام منظَّمة ، ودعي منذئذٍ بحي «المهاجرين» . وكان ان الهواء الدائم في ذاك الحي ، وما يمتاز به من جمال المنظر ، اهــاب بسراة الاتراك فاخذوا يسكنون فيه . كما ان كثيرًا من الاسر الموسرة اخذت تنتقل من المدينة القديمة ، ملاقية طول طريق الصالحية ، بين الجنائن المتتابعة ، منازل افضل من منازلها الاولى .

بقي أن الرغبة بتسهيل حركة السير للعربات الداخلة حديثاً في المدينة دفعت الى توسيع السوق المهمة ، تلك التي تقابل الجادة الرومانية . فنشأ بسبب تضييق مجال التجارة في تلك السوق ، أسواق جديدة قامت مكان خندق القلعة ، وقد طمرته الحكومة وقسمته .

اما الحقبة الثانية فتبتدئ بالسنة ١٩٢١ ، وفيها استقرّ الانتداب الفرنسوي في دمشق . فاخذ تقدّم المدينة بالنظر الى الغرب يسير سيراً حثيثاً . وذلك لان الاوربيين اخذوا يشتركون فعلًا بادارة البلاد ، ولأن طارئة فرنسوية اخذت تقيم في المدينة ، وان تكن تلك الطارئة قليلة العدد ، فانها شديدة التأثير بسبب غناها النسبي ، واتحادها بعضها ببعض ، ونفوذها الاجتماعي والثقافي .

وبفضل اقامتها في دمشق ، وفي سبيل حاجتها ، تقدمت تلك الاحياء الممتدّة بين الصالحية والمدينة القديمة ، والتى ظلّت ضئيلة حتى ذلك العهد . وهكذا رأينا « الجسر » و« عرنوس » و « الشهداء » ، في اقل من عشر سنوات ، تنمو نموّاً فاق كل تقدير . فتظهر بمظهر مدننا الغربيـة بشوارعها العريضة المستقيمة ، واختلاط سكانها ، حتى لا نرى اثراً لتلك الحواجز العنصرية ، فالاوربيون يعيشون والسوريين جنباً الى جنب . بل ان نصارى المدينة انفسهم اخـذوا ، بفضل الامن المستتبّ ، يتركون حيّهم القديم في باب توما وينتقلون شيئاً فشيئاً الى هذه الاحياء الجديدة . وهذه الحوانيت والمخازن تتتابع الآن طول الجادة الوسطى ، في هذه الاحياء ، فتظهر لا بمظهر السوق القديمة ، بـل بمظهر شارع اوربي تجاري تجد فيه جميع اصناف التجارات الواحدة جنب الاخرى .

وليس ما يمنع تتابع هـذه الحركة العصرية . فان الاحياء الجديدة تنزع منذ بضع سنوات الى احتكار الناحية العصرية في حيـاة المدينة فتنتقل اليها يوماً بعد يوم جميع المؤسسات المهمة في المدينة الحاليـة كالادارات المتنوعة ، والمصارف ، والفنادق ، والمستشفيات الخ . وهكذا تنشأ دفعةً واحدة مدينة جديدة الى جنب المدينة القديمة بينا تتجه هذه نحو الانحطاط باسواقها المحتضرة وما يقوم حولها من المؤسسات القديمة كالبطريركيات ، والمحكمة الشرعية ، والمعهد الفرنسي ، ومساكن الطبقات الفقيرة من الشعب .

مآخذ البحث

التآليف العامّة

افضل بحث شامل عن دمشق هو مقال هرتمان المنشور في دائرة المعارف الاسلامية :

R. Hartmann, *Damas*, dans *l'Encyclop. de l'Islam*.

ويجب ان يُراجع كذلك :

A. von Kremer, *Topographie von Damaskus* (dans *Denkschriften d. K. K. Akad. d. Wissenschaften*; Vienne, 1854-55) et *Mittelsyrien und Damaskus* (Vienne, 1853).

اما النصّ العربي المهمّ، وهو نصّ النعيمي، فقد نشره سوڤير مترجمًا الى الفرنسوية في المجلة الاسيوية : H. Sauvaire, *Description de Damas*, dans *Jour. Asiat.* 1894 à 1896). وفيه تاريخ مفصّل لكل أثر مع تعاليق وحواشٍ ومعلومات تخطيطية مفيدة جدًّا. ولكنه لا يزال بحاجة الى فهرس.

K. Wulzinger et Watzinger, *Damascus*, I : *die antike Stadt*; — II : *die islamische Stadt*, Berlin et Leipzig, 1924. وهما يوردان لائحة اثرية تامّة بما في المدينة. على ان ما استخرجاه من نتائج يظلّ بحاجة الى نظر.

J. Sauvaget, *Les monuments historiques de Damas*, Beyrouth, 1932. فيه لائحة بالمنشآت بحسب ترتيب بنائها التاريخي.

اما في ما خصّ الإطار التاريخي فليراجع :

H. Lammens, *La Syrie, précis historique*, Beyrouth, 1921.

محمد كردعلي : خطط الشام، دمشق، ١٩٢٥ . . .

وليراجع، في الآثار القديمة :

J. Sauvaget, *L'architecture musulmane en Syrie*, dans *Rev. des Arts Asiatiques*, 1934.

الموقع

افضل درس جغرافي مفصّل هو بحث تومَن

R. Thoumin, *Géographie humaine de la Syrie centrale*, Paris, Leroux, 1936.

ويمكن ان يراجع :

L. Dubertret, *La carte géologique de Syrie au millionième*, dans *Rev. de Géogr. physique et de géologie dynamique*, 1934.

R. Blanchard, *L'Asie antérieure*, Paris, 1929.

ابو البقاء : نزهة الانام في محاسن الشام ، القاهرة ١٣٤١ هـ. — فيه وصف للمدينة في اواخر القرن الخامس عشر ، ومعلومات وافرة الاهمية في تاريخ الزراعة.

ويمكن ان يراجع بشيء من التحفّظ :

R. Tresse, *L'irrigation dans la Ghouta de Damas*, dans *R E I*, 1929.

وهناك تأليف دوسّو ، وهو مصدر اساسي لتاريخ الطرقات والاعلام :

R. Dussaud, *Topographie historique de la Syrie antique et médiévale*, Paris, 1927.

اصول المدينة

التواريخ العامة للشرق في العصور القديمة ، وخصوصاً

Ed. Meyer, *Geschichte d. Altertums*, Stutgart et Berlin, 1925 et suiv.

يضاف اليها ، في ما خصّ تفصيل الحوادث ، الكتب التاريخية في العهد القديم.

ويجد الباحث وصف الآثار العاجية وتصويرها في : F. Thureau-Dangin, F. Barrois, A. Dossin et M. Dunand, *Arslan-Tash*, Paris, 1931.

وبالاستناد الى Vincent, *Canaan d'après l'exploration récente*, Paris, 1914.

والى الحفريات التابعة ، يستفيد الباحث نقاطاً للمقابلة.

اما البيت الدمشقي في زيّه التقليدي فقد درسه درساً حسناً

R. Thoumin, *La maison syrienne*, Paris, 1932.

المدينة اليونانية - الرومانية

Jalabert, art. *Damas*, dans *Dict. d'Archéol. chrétienne et de liturgie*.

في المؤسسات اليونانية ، اطلب :

Tscherikower, *Hellenistische Städtegründungen* (*Philologus*, Supplément band XIX ; Leipzig, 1927).

H. Wulzinger et C. Watzinger, *Damascus*, I.

مع نقد ، في ما خصّ الهيكل ، بقلم

R. Dussaud, *Le Temple de Jupiter Damascénien et ses transformations aux époques chrétienne et musulmane* (dans *Syria*, 1922).

وسأعرض عن قريب شرحاً جديداً للآثار القديمة أناقش فيه الامور المذكورة هنا.

الامويّون

اهم الابحاث في هذا العصر هي ابحاث الاب لامنس

H. Lammens, *Études sur le règne de Moʿâwia 1er*, Beyrouth, 1908.

Études sur le califat de Yazîd 1er, Beyrouth, 1921.

Études sur le siècle des Omeyyades, Beyrouth, 1930.

واحدث وصف لجامع الوليد ظهر في

K. A. C. Creswell, *Early Muhammedan Architecture*, Oxford, 1932.

وقد اعاد النظر في ما ظهر من ابحاث سابقة. وفيه شرح مخالف لما ذكرته هنا وفي كتابي:

Monuments historiques de Damas

وفي اهمية الجامع الاكبر اذ ذاك: Perdersen, art. *masdjid*, dans *Encycl. Islam.*

اما المعلومات عن سائر اقسام المدينة فيجب ان تطلب في التآليف العربية المذكورة ادناه وفي:

H. Sauvaire, *Description de Damas.*

تكوين المدينة في القرون الوسطى

في الاصول العربية معلومات متفرقة في ما خصّ العصر العباسي. اما العصر الفاطمي فأهم نص يُعتمد عليه تراه في:

ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ليدن ١٩٠٨

في حياة ارباب الحرف يراجع:

L. Massignon, *Enquête sur les corporations musulmanes au Maroc.* (dans *R. M. M.*, t. LVIII), et art. *shadd* et *ṣinf* dans *Encycl. Islam* (av. bibliographie).

في الحارات والاحياء:

R. Thoumin, *Deux quartiers de Damas* (dans *Bull. d'Études Orientales de l'Inst. Fr. de Damas* t. I).

يقابل بكتاب: J. Weulersse, *Antioche* (dans *Bull. Ét. Orient.*, t. IV).

وليس كلّ ما فيه ينطبق على دمشق. اما العناصر الموافقة انحاء المدينة كلها فقد درسها

W. Marçais, *L'Islamisme et la vie urbaine* (dans *C. R. Ac. I. B. L.*, 1928).

الاتابك والايوبيّون

المصادر التاريخية: لاول العهد:

ابن القلانسي، وقد ترجم قسماً منه گيب:

H. A. R. Gibb, *The Damascus chronicle of the Crusades*, Londres, 1932.

ثم النصوص الشرقية المجموعة في سلسلة « مؤرّخي الصليبيين ».

ابن عساكر: تاريخه (مخطوطة المكتبة الوطنية في دمشق، وطبعته السقيمة التي ينشرها بدران في دمشق) وفيه لائحة مهمّة لآثار دمشق على عهد صلاح الدين، وقد نقلها ابن شداد والنُعيمي، ويجب ان يلحق بها ما كتبه ابن جبير في رحلته (طبعة ليدن).

لآخر العهد:

ياقوت: معجم البلدان، كلمة: دمشق.

وصف مفصّل للقلعة في J. Sauvaget, dans *Syria*, 1930

المماليك

الحوادث التاريخية في : Quatremère, *Histoire des Sultans mamlouks*, Paris.
ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة (طبعة Popper ، في بركلي).
ابن اياس : بدائع الزهور (طبعة Sobernheim, Kahle et Moustafa في استنبول ١٩٣٠ و١٩٣١).
في ما خصّ المظهر الاجتماعي والاداري :
M. Gaudefroy-Demombynes, *La Syrie à l'époque des Mamelouks*, Paris, 1923, وهو ضروري جدًّا.
في التجارة :
W. Heyd, *Histoire du commerce du Levant au Moyen Age* (2ᵉ éd. Leipzig, 1923).
نظرات عامة في ابن بطّوطة : الرحلة (طبع وترجمة Defrémery et Sanguinetti,)
Bertrandon de la Broquière (éd. Schefer, Paris, 1892).
في سوق الخيل وتأثيرها :
J. Sauvaget, *Décrets mamelouks de Syrie* (dans *Bull. Ét. Orient. Inst. Fr. Damas*, t. II), p. 13-15 et 33-41.

العثمانيون

ليس من تاريخ مفصّل لسورية العثمانية ، ولا تزال سجلّات القنصليات الاوربية غير مطبوعة . واذًا فيمكن الرجوع، في ما عدا التواريخ العامة للامبراطورية العثمانية (Hammer, Jorga) ، الى الفصول ١٣ — ١٨ خاصة من تاريخ الاب لامنس ، والى رحلات الرحّالة الاوربيين العديدين ، وكلها مفيدة في بعض النواحي . نذكر منها رحلات Belon du Mans في القرن السادس عشر ، d'Arvieux في السابع عشر ، Thévenot و Pococke و Volney في الثامن عشر، Richter و Porter في التاسع عشر.
ولتراجع الحوادث الاجتماعية في Mouradgea d'Ohsson, *Tableau de l'empire ottoman*.
وقد درس التجارة :
H. Masson, *Histoire du commerce français dans le Levant au XVIIᵉ siècle*. (Paris, 1896) et *au XVIIIᵉ siècle*. (Paris, 1911).
اما في الحجّ الى مكة فالمؤلف الاساسي هو :
M. Gaudefroy-Demombynes, *Le pèlerinage de la Mecque*. (Paris, 1923).
واما في طريق الحج فيراجَع :
A. Musil, *The Northen Hegaz*, (New-York, 1926), p. 326-331.


Bibliotheca Alexandrina
0419836